قصة العمر

سليمان العيسى

« الى ضفاف دجلة الغالية .. الغالية.. ملاعب الصبا.. وذكريات الدراسة والشباب .. هذه النسمة العطشى من أنسام بردى .. بردى الذي كان ـ وما زال ـ يعرف الى اهله الطريق .. ويعرفون اليه الطريق ..»

أين بغداد ؟ تحتويها اليدان واللهيب العتيق .. والشفتان
يا بقايا من الضلوع تحداك .. تحدى رمادك العاشقان
اهصريني على اللقاء دموعا وليزغرد في صدري الحيّان
قصة العمر .. لم أكن غير حُلم لم يكن غير نبضة ديواني
نبضة .. تنبع السماوات منها والثرى.. كي تضبّ في الانسان
نبضة.. سمّها تمزق جلدي (1) قادم من مقابر البركان
قادم من مخالب الذئب والافعى .. وميلاد أمة في بناني
عربيّ .. بيتي أنين الملايين .. وتاريخ قهرها عنواني
قصة العمر .. لم أزل أتحدى أنا أقوى يا موت من أكفاني
ما أبالي .. بعض يحشرج في الدرب كسيحا أو ينتهي .. سيّان
ما أبالي .. تيبّست بعض أوراقي .. جذوري والدهر لا يفنيان
بانتظاري التاريخ .. فليلهو من شاء ، ويركع ، للاختيار الجبان
هزمتني القبور دهرا .. وقاومت ، وكسّرت في الصمود سناني
وخرجنا من الغبار .. فماذا ؟ السما والعروبة الباقيان
أنا أقوى من التوابيت ، أقوى من جدار الضباب في أجفاني
أسحق الليلَ والسواد بأطفالي ، وباق على الشموس رهاني

* * *

قادم من مقابر الضوء ، والحب ، وأنشودة تلفّ كياني
أتملى بين الرصافة والجسر شبابي ، وأستعيد عناني
وعيون المها بريق حسامي وهدير التاريخ عرف حصاني
ودمشق الجذور ، فارسة الحلم .. نداء مجرّح في جناني
ما جفاني الحبيب الا تزودت اليه ما تملك المقلتان
ما تبقى في القلب من حرقة عطشى ،
وشعر ،
وصبوة ،
وافتتان
واختصرت الزمان .. أي زمان في حساب الهوى.. وأي مكان؟
وارتمى العاشقان في اللهب العذب .. وضاعت في القبلة الشفتان

* * *

أين بغداد ؟ وابدئي يا زحوف القهر .. هيا ارسميه شكل الزمان !
ابدئيها .. مسيرة الدم والدمع .. ومن قطرة .. الى طوفان
من جذور العذاب .. من عتمات اليأس هيا .. الى الصباح القاني !
الصباح الذي انتظرناه حتى «شمخة» العار ، و «اعتداد» الهوان
وضريح ينشقّ اثر ضريح لرؤانا ، لنبضنا الحرّان
الصباح الذي نعاه الينا وتولى عزاءنا الثقلان
الصباح الذي يقول : أنا البعث .. وباق على الحياة رهاني
باقيان الدماء ، والوحدة العطشى ، يطول السرى ، وينتصران
قادم من مقابر الضوء .. وهران بكفيّ ، والنيل ، والدجلتان
من دماء الاوراس ، من دمع يافا من جذور النخيل والسنديان
قادم .. في عباءتي أخزن الشمس ، وقبري عصاي والقدمان

(١) رمز للتجزئة في وطننا العربي الكبير .

ومخيف .. اذا توحّد .. قهري وحرار اذا التقت نيراني
قادم بالضياء ، بالحب ، بالشعر ، بصهر الاشجان في الاشجان
أين بغداد ؟ وسّعي حلقة العرس .. جناحا قبلتي آتيان
ابدئي العزف .. تنتفض هذه الدنيا ، وتعشب على يدي الاغاني
ابدئي العرس .. ربما
جنّت الارض والسما
ورمتنا سود الطيور الابابيل
بقديم الحقود ، بالنار ، بالسجّيل
ابدئيه .. أي الخسائر نخشى ؟
حين يمسي وجودنا الضخم نعشا
وترابا ممزقا
وملايين للشقا
وفتات الفتات من خبر أرضي
للصوص الدنيا كنوزي وأرضي
وعبيدا بلا ثمن
كان يوما لها وجوه
كان يوما لها وطن

* * *

ابدئيه بغداد .. كل الاضاحي بانتظار النفير .. كل الاماني
كل دمع ما زال في جفن سنا كل جرح ما زال في الجولان
ابدئيه ونحن وقدته الاولى .. أطهّر بجمره احزاني
ابدئيه .. تنهدّ كل المتاريس .. وينهض ما ليس في الحسبان
تتفجّر على الرمال ينابيعي ، ويمشي العطشان للعطشان
ابدئي الزحف .. كل حبة رمل في انتظار الصهيل والفرسان
لم نفجّر بعد الفتيل .. أخوفا ؟ الف عمر .. أبيعه بثواني
كانفلاق النواة .. يولد شعب يوم يختار صرخة الميدان

* * *

يابنة الشمس .. في سعيرك درّبت لهاتي شعرا ، ورضت لساني
اهدئي في جوارحي ، واستريحي ساعة في دمي، وصوغي بياني
وأعيدي اليّ ظل شبابي واسفحيني على المدى العريان
طفلك العائد المجرّح يا بغداد ، لم يبرح القصيّ الداني
أبدا أزرع الطفولة في دربي ، وأقتات وهجها في كياني
أبدا أحمل الفجيعة لي زادا ، وألقي في وجهها عنفواني
أبدا .. لم يمت بمبلادنا الجبار حلمي ، ولا انتهى ايماني

* * *

طفلك العائد المجرّح ، هاتي ليلة العرس خمرتي ودناني !
ورفاقي من كل جرح وآه وعيون الى الخلاص رواني
واجمعي في حديقة الصبح أطفالي ، وقولي للشمس : هذا أواني !

* * *

قادم من مقابر الضوء شعبا عربيا يعيد رسم الزمان
آه يا بيتنا الحزين شمالا لو سقاك الذي مسائي سقاني

دمشق

مقابلة أدبية مع : محمد مهدي الجواهري

قال : وأين ولدتك أمك ؟

قلت : على قارعة الطريق أيضا ...

قال : أكل شيء على قارعة الطريق ؟

قلت : أجل ، انها من المعتقدات بـ ـ أسطورة !! « سيادة النور » و « عبودية الظلام » ... وهي ترتجف رعبا من الليل ، ولذلك فهي لا تضع حملها الا على قارعة الطريق .

قال : وأبوك ؟

فقلت له : انه لا يشغل بالي من أمره أكثر من انه كان يتحمل الالم ولكن بصمت : بلا ثورة على الالم ، وبلا تجديف . وانه كان يغني ، ثم خاف فترك الميدان . وكل ما هو على شاكلته من المغنين لا تشغل بالي من أمرهم شيء .

قال : ومتى عهدك بالمدينة وأهلها ؟

قلت : وبعد ، فقد استمروا يرقصون حتى بعد أن طردني الحاكم شر الطرد من أجلهم . طردني أنا ومن معي ...

قال : أفأنت حاقد عليهم من أجل ذلك ؟

قلت : لا ... أبدا ، بل غاضب .

قال : أولا تريد أن تراهم ؟

قلت : ان بريق الغضب في عيني ليصدني عن رؤيتهم .

(من مقدمة ديوان محمد مهدي الجواهري)
كتبها بنفسه .

أيها الرجل العتيق عتق التاريخ .

أحدق في وجهك ، أية قدرة على الفرح ، أحسدك محمد مهدي الجواهري ، أنت تستطيع الفرح والحزن والصراخ ، أحسدك وأنت تجرّ التاريخ من عنقه وتلوي ذراعه ، الكلمات في فمك تتحول الى صرخات لا تخصك وحدك ، بل يصرخ بها ملايين الناس ، تقبض حفنة ريح وتلقي بها الى الضوء فيتحول الضوء الى بحر وأرى ... أرى ... أرى دجلة بحراً كذب من قال انه شيء آخر ، رمال وزبد وشاطىء مليء بالقواقع والاسماك وكذب من قال شيئا آخر .

مرة ولدتك أمك على قارعة الطريق .

هكذا تبدأ الحكاية ، وكنا ننتظر ، هذا هو زمن الرعب يا مهدي الجواهري حيث الامهات لم يعدن بقادرات على أن يلدن على قارعات الطرق لان الطرق للآخرين ولم تعد لنا ، سكنك الشعر وسكنت الشعر ، فأي منكما يعانق الشمس دون خجلَ . أنت ؟ أنت والشعر أيضا .

سأسميك التاريخ وأستريح ، والتاريخ كما تعرف ليس كتابا ولا حكايات . بل ـ كما قال صديقي ـ هو انسان أسطوري بلا شكل ، أنت عابق بأنفاسه ووقائعه ، وأنى ذهبت لا تخرج من اساره بل تجد نفسك تتوغل فيه أكثر وتحسّ انه يملأك ، يسد عليك المنافذ ، يفرض عليك أن تتعاطى معه ، أن تحدد موقفك منه وعلاقتك به .

أية قدرة في دمك تحولك الى المستقبل ؟ بل أية طفولة ؟

قل لي أيها الطفل الشيخ : هل هناك جروح كثيرة تزرع جسدك ؟ من كسا جلدك بالقبلات وطعنات السياط ؟ نحن ، لان الرجل في بلادنا عندما يسكن المستقبل بشخن بالجراح والقبلات والطعنات . المرأة وحدها تقبله ... تغسلَ أقدامه ... الرجال يتوجونه بالشوك .

من أين نبدأ ؟

أأعرّف بك ؟ لا ..

أتحدث عن تاريخ ميلادك ؟ لا ..

أنت الزمن دون ميلاد أو تاريخ . سأسميك : محمد مهدي الجواهري ، ومن يجهلك ؟

أنا ، أبي ، أمي ، وغدا ابني نصرخ باسمك ، من أنت بعد كل هذا ؟ من أنت أيها الشيخ الطفل ؟

أعرف انك دون عمر ... أنت لا تعترف بالسنين ولا بقوانينها أو حدود دولها .

الابتسامة على وجهك ونحن متقابلان أمام آلة التسجيل ، عندما أسألك عن عمرك .

ـ عمري أكثر من خمس وثلاثين سنة . أتصدقين ؟

ومتى رحلت الى الغربة ، وكم كان عمرك عندما رحلت ؟

مرة أخرى تبتسم .

قلت لك أكثر من خمس وثلاثين سنة .

ـ أحييك . لقد مضى زمن لم نلتق فيه . تذكر لقاءنا الاخير في دمشق في مؤتمر الادباء الرابع ، كان ذلك على ما أذكر ، عام ١٩٧٠ .

ـ لا ، لا ، كان ذلك عام ١٩٧١ . ان ذاكرتي قوية. أعدّ على أصابعي ... أخرج جواز سفري فأحدق



بتاريخ غربتي أنا . منذ ذلك اليوم لم أر وجه دمشق ، وتعرف انني أعشقها كل العشق .

ـ صحيح ، كان ذلك عام ١٩٧١ .

ـ لسوء حظي فانني املك ذاكرة قوية ... ذاكرني لم تضعف ويا ليتها تموت ، لان من الاسهل أن ينسى الانسان في هذا العصر . ان تذكر الزمن المديد شيء مؤلم ، يا ليتني أنسى الخمسين سنة الماضية .

اضحك :

ـ أستطيع ان أعرف عمرك الآن ، اذا كنت قد بدأت تعي العالم في السن العاشرة فانت الآن في الستين .

تضحك أنت :

ـ قلت أكثر من خمس وثلاثين سنة .

ـ دعني أسبح معك في التاريخ يا جواهري ، دعني أعود لطفولتك ، أنظر الى عيني ، وانس انك هنا ، في هذه الغرفة ، في الساعة الثامنة والنصف من يوم ... انس قليلا وعد معي الى الماضي وتذكر مهدي الجواهري الطفل .

ـ أنا من عمر جدك ورائع أن تذكريني بطفولتي . ها هي أمامي وكأنني أعيشها الآن . بيتنا العتيق الواسع في النجف بغرفه الكثيرة الواسعة وأنا طفل على صدر امي . كنت ما أزال أرضع ، وأذكر أين تقع غرفة جدي في البيت . شكله ، لحيته . وجهه . قلت هذا لأمي فيما بعد ودهشت . قالت لي : لقد مات جدك وانت رضيع ، هذا عجيب . كيف تذكر ذلك ؟ بالمناسبة لقد ماتت امي عن عمر يناهز ال ٩٢ سنة ، رغم كل الصعوبات التي تعرضت لها في حياتها ، نحن من أسرة نعمر طويلا . كانت امي تقول لي عندما ترى ابنتي هلال : انها تذكرني بك ، نفس المشية والحركة ورفعة الجبين .

كان عمري ثلاث سنوات ، وكان البناؤون يبنون جدران بيتنا ويطلونها بالقير ـ أحب رائحته لانها تحمل النظافة ـ كنت أخرج اليهم وعندما يرونني يتركون العمل ويبدأون صفقة . ثم يغنون :

« مهدي عنيبي
يفور فورة
ويستوي بعدين ينصح
مهدي حنينه عزيز » .

ومعنى المقطع الاول : مهدي عنيبي ، أي يد أقصر من يد ، لانني سقطت مرة وكسرت يدي . كانوا يسخرون مني أيضا عندما يقولون : « مهدي حنينه عزيز » أي يعيرونني بأخي الذي يكبرني ، ومعنى ذلك انني لا أساوي الوصلة التي يلفونه بها . ولم أكن أغضب منهم لانني أعرف انهم يحبونني .

الشر والخير في الانسان منذ طفولته ... يتصارعان أبدا . تصوري ، عملت مقوارا من الزفت وجربته مرة في رأس أحد أبناء عمي ـ واسمه (عزيز) ـ

فشقه وسال الدم ، ولما حاول أن ينتقم مني غطتني عمتي بعباءتها .

ابي ؟ الذي كان يغني وصمت . لا أدري لماذا ؟

اصر على أن يصحبني معه كل ليلة الى مجالس الادب والعلم في النجف ، أن يجبرني على الاستماع ليالي الى أشعار المتنبي وزهير ، وكنت أسأم أحيانا وأنام ، أجبرت على حفظ نهج البلاغة ، وأمالي السيد المرتضي والقالي والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وأنا في الثامنة من عمري . مصيبتي حافظتي وتأتي عندي بعد مصيبة الذاكرة . لقد أثقلوني بما لا قدرة لي عليه . اسمعي هذا المقطع من خطب الامام علي :

(ويريك من خضرة زبرجدية وخضرة عسجدية) .

هذا يرافقني منذ الطفولة .

كبرت في النجف ، وفي الثالثة عشرة تقريبا بدأت كتابة الشعر ، كنت أهرب الى قبو البيت لاصرخ بأبياتي وهي صفة ما تزال تلازمني حتى اليوم ... انا ادندن الشعر واتغنى به قبل أن اكتبه .

أبي الذي كتب الشعر وتوقف لم يرد لي أن أتجه الا الى الدين . كانوا يريدون أن يجعلوا مني رجل دين ـ ما شاء الله ـ ولكنني كنت أخفي كتب الادب والشعر تحت كتب الدين حتى يعتقد والدي انني ما زلت في الخط الذي أراده . وأخيرا كان ما كان ... لم يتركوا لي فرصة اللعب في طفولتي وما زلت أندم على ذلك .

ـ هل لعبت في الحياة فيما بعد ؟

ـ صدقيني ان هناك مفارقات عجيبة في شخصيتي . لقد كتبت شعرا غزليا في منتهى الروعة والجراة دون أن أعرف المراة ، دون أن أعرف شيئا عن الحياة .

ـ وأين كانت المراة ؟

ـ كانت في الذاكرة ... في القلب ... لم يصدقني أحد . كانوا يظنون انني أكتب ما أكتبه عن تجارب حقيقية ، لكن هذا غير صحيح . تذكرين قصيدتي :

لا اكذبنك انني بشر جم المساوىء آثم أشر

والله لم يكن عندي لا اثم ولا شر ، لكنني تصورت ما يجب أن أكون عليه لكي أكتب الغزل .

ـ ألم يكن نوع من التحدي لشيء قائم ؟..

ـ لا أدري ، اسمعي بعض أبيات القصيدة :

ومسكت نهديها واحسبني أشفقت أن تتدحرج الوكر

اسمعي أيضا :

جربيني قبل أن تزدريني
وإذا ما ذممتني فاهجريني
ويقينا ستندمين على انك من قبل لم تعرفيني

كتبت كل هذا دون أن أعرف المراة .

ـ وكيف ؟ بماذا كنت مشغولا ؟

ـ كنت تائها بين الوظيفة والعمل الصحفي ... في ديوان وزارة المعارف والتدريس .

ـ أستاذ جواهري ، أنت جزء من تاريخ العراق الحديث . لا يمكن أن أتحدث عن العراق دون الحديث عنك . الايام الماضية كانت صعبة ... كانت قاسية ... وكانت مفرحة أحيانا ..

ـ أنا في الصميم .

ـ ماذا ترك عندك الماضي الذي عايشته وعايشك ؟

ـ ترك عندي هذا الذي ترينه الآن أمامك : لقد ربطني بالناس ولم أستطع أن أنفك عنهم أبدا .

ـ أتشعر بحاجتك لهم ؟

ـ نعم ، ولا أتصورهم بحاجة لي .

ـ ماذا يمنحونك ؟

ـ خير ما عندي ... القدرة على النطق .. على التعبير ، وهذا ليس بقليل .

(اين انت يا سارتر ؟ الآخرون ليسوا بجحيم ...)

يستمر الجواهري :

ـ الناس هم الذين يجعلونني اقول في هذه السن ما أقوله ، وهذا نادر لدى الشعراء . تعرفين ان الرصافي انتهى قبل موته بـ ٢٥ سنة ، الزهاوي انتهى قبل أن يبدأ ، شوقي مات شابا ... في الستين ، ولو بقي أكثر ربما كان قد انتهى ... وأنا ! والحمد لله ما زلت أقول الشعر حتى هذه السن . رحلة طويلة لي لم أحصل فيها على شيء الا هذا المنزل الذي ترينه ، ولكنني حصلت على حب الناس وتقديرهم لي .

ـ كنت مناضلا سابقا في الحزب الشيوعي ورافقت الناس أثناء فترة الاضطهاد ..

ـ لم أكن في الحزب يوما وأفتخر لو كنت . خيرة أصدقائي منهم وأنا في الصميم منهم أيضا . لقد أعطوني نفسا وهم يقطعون مسيرتهم الصعبة التي أنا جزء منها ... يسمونني رفيق الطريق .. أحبهم ولم أخنهم ولن أخونهم أبدا . لقد سألتني احدى الصحافيات يوما عما اذا كنت في الحزب ؟ قلت : لا ! قالت : يقال انهم يضعونك في جيبهم . قلت لها : الشيوعيون الذين أحبهم في جيبي .

وقد زورت ما قلت وكتبت : انني أخاصم الشيوعيين . يومها أثرت ضجة كبيرة وطلبت اليها التصحيح ، أنا لا أخاصم الشيوعيين .

ـ أنت محمد مهدي الجواهري وهذا يكفي .

ـ هذا صحيح . أنا محمد مهدي الجواهري ، لم أخض التجربة الحزبية ... الا مرة واحدة : كان ذلك عندما دخلت حزب الاخاء الوطني أيام الحكم الملكي . « تونتست » قليلا ...

ـ لنعد الى الغربة . أنا قادمة من الغربة . قل لي : متى كان رحيلك الى الغربة ؟

ـ أول رحيل لي كان عام ١٩٥١ الى مصر (ولا أسميه غربة) . ذهبت لزيارة أولادي الذين أخذهم الدكتور طه حسين ليدرسهم على حساب وزارة المعارف المصرية مساعدة لي . ثم بعد ذلك الى دمشق . ولكن الغربة الحقيقية بدأت عام ١٩٦١ ، أيام حكم عبد الكريم قاسم ، ذهبت الى براغ ومكثت فيها .

ـ هل أجبرت على الرحيل ؟ هل كنت ملاحقا ؟ أكنت مهددا بالسجن ؟

ـ لم أسجن أبدا في حياتي الا مرة واحدة ولمدة شهر فقط . الامر الذي أثار ضجة في البرلمان ، لقد أوقفت شهرا واضطر الحاكم أن يحكم عليّ بشهر فقط ، ومع ذلك فقد شتمت القضاء في قاعة المحكمة . السجن ليس بطولة ، والذين يتبجحون بهذا دائما مغفلون . لقد كانت لديّ حصانة ما ، كان الحكام يخافون الناس ويحسبون حسابا لتأثيري عليهم .

ـ وهل كان سجنك بسبب قصيدة ؟

ـ لا . بل بسبب مقال سياسي .

ـ والآن . والآن مهدي الجواهري ، لننتقل الى الشعر .

ـ كنا نتكلم شعرا أليس كذلك ؟

ـ أقصد لننتقل الى تجربتك الشعرية . قل لي : كيف تكتب القصيده ؟

ـ عندما أكتب الشعر ، تعلن حالة الطوارىء في البيت ، ويغلق باب غرفتي . أجلس الى المنضدة وأمامي صحنا سجائر ... أدخن بشراهة ... أقف ، أذرع الغرفة جيئة وذهابا وادندن بالموسيقى بصوت مرتفع ، موسيقى دون كلمات . يعلو صوتي كثيرا حتى يصل الى الجيران ، وكم أزعجتهم وأيقظتهم من نومهم . هنا يتحملونني ، ولكن عندما كنت في براغ كثيرا ما كانوا يقرعون الجدران فأضطر للتستر باللحاف وخنق صوتي . أدخن ما يقارب خمسين سيجارة ، ولا أستعمل الورق العادي ... يعجبني أن أكتب على غلاف الكتب وعلب السجائر . وقد أضعت قصيدتين بسبب ذلك ، لانني نسيت والقيت بعلب السجائر دون أن أنتبه ..

عندما أكتب الشعر ، أبدأ بتسجيل الفكرة ثم أبحث عن البحر الذي يلائمها .

ـ كم مرة تكتب القصيدة ؟

ـ مرة واحدة فقط .

ـ ألا تصحح ؟

ـ نادرا ، وفي اربعة أو خمسة أبيات ربما .

ـ هلَ تسقط بعض الابيات ؟

ـ لا ، أعدل فيها لأن كل بيت عزيز عليّ ، كل بيت قطعة مني ، أحاول أن أعدل ولا أسقط ... أبدل الكلمات وأسوغها على الفكرة ، لكنني لا أسوغ الفكرة على الكلمات .

ـ ما هو احساسك بعد أن تنتهي من كتابة القصيدة ، وكيف تراها ؟

ـ احساس جميل ... أتصورها عشيقة جميلة احبها . عندما اصحو منها أبدأ بتفحصها وأتساءل : هل تستحق مثل الصورة التي أعطيتها اياها ؟ أحاول أن أنقدها درن أن أغرى بها . لا أريد أن يسحرني اغراؤها أو يسيطر عليّ . أحاول التجرد بصدق ، لكنني أحبها وتحبني ، أتملاها بعين واعية ، واذا ما كان هناك من ملاحظات خفيفة أعدل فيها . ونادرا ما أفعل ذلك .

ـ كيف تشعر ان القصيدة قد انتهت ؟ وهل يمكن ان تضيف أبياتا جديده ؟

ـ لا أستطيع أن أضيف ، عندما تنتهي القصيدة تنتهي ، لانني قد قلت ما أريد قوله .

ـ أستاذ جواهري ، كم واحدا أنت ؟

ـ سؤال لطيف وذكي . أنا اثنان في واحد .

ـ هل تبحث عن الوحدة الكلية بين الاثنين ؟

ـ بحثت وأبحث باستمرار .

ـ عرفني على الاثنين .

ـ هذا الذي أمامك ، الذي تقرأينه وتحبينه وتتصورين انه منسجم مع نفسه . أما الثاني فرجل متناقض كثيرا في تصرفاته .

ـ العادي أم الفنان ؟

ـ العادي وبشكل غريب . طفولات ، تصرفات غبية من أغبى ما يمكن . الاعتيادي لا يعملها . اشعر انني أشد غباء من الآخرين . أعطيك مثلا على ذلك : لقد دخلت مرة على شخص عظيم فوقف مرحبا بي ، وبدل أن أجلس في مكان مناسب كي يراني جلست الى يمينه بحيث كنت أعلى منه .

ـ ربما عملت هذا بشكل تلقائي ، لشعورك انك أرفع منه ؟

ـ أبدا ، أنا مهذب جدا وأحترم الناس .

ـ لنعد الى الشعر .

(كان في رفقتي زميل صحفي من مجلة «الرسالة» الكويتية ، وقد طرح سؤالا على الجواهري يتعلق ببدر شاكر السياب ، وحرصا على أمانة الجواب سأسوق السؤال والاجابة) .

سؤال الزميل : ألا ترى ان السياب قد أخذ أكثر مما يستّحق ؟

أجابه الجواهري : أنت سألت وأنت أجبت . لقد تصورت عندما بدأت حميدة مقابلتها انها ستسألني مباشرة عن السياب لانني اعتدت على هذا النمط من المقابلات . سأجيب على كل حال : نعم أعطي أكثر من حجمه . السياب صديقي وقد دخل بيتي ، عنده بعض الشعر الذي يذكر ، وكثير من شعره لا قيمة له . لكنه نفخ كثيرا ، وهذا يرجع الى انه مات .

خماسية الروح

سعدي يوسف

ـ ١ ـ

يوم عالجتها بالتراب
ـ هذه الروح ـ قال التراب :
بالضياء احترقت .

كيف يمضي الى كوكب ليس يعرفه ؟ هــذه الطرق المستقيمات ماثلة منذ أن كان طفلا ... وهذا التراب الذي ظل دهرا يبعثره ، او يسفّ احتمالاته : البذرة الأم ، والدرنة القــاتله . بالاظافير يحتثه ، بالأكفّ الرقيقات يحثوه ... هذا التراب الجميل ، التراب المموّه بالنــاس ، من اين يأتيــه ؟ من اين يقتاده المتاعب ؟ دارت بــه السنوات : التراب المبعثر بين اصابعه ، والسبيل المبعثر ، والنظرة الحائله .

ـ ٢ ـ

حين عالجتها بالهواء
ـ هذه الروح ـ قال الهواء :
يومها ، ما هببت .

هو ، والبحر ، كانا شقيقين ... ذاك الهواء المشبّع باليود ، والسمك المتعفن ، والثوم ... ذاك الهــواء الــذي يتسرب بين القــواقع ، والهبّة البكر تزهر فقاعة ...

هو ، والبحر ، كــانا شقيقين ... مــن يملأ الرئة اليــوم ؟ اني احشرج بين الرفوف التــي سكنتها الرواسب ، والغيضانات ... هــذا الهواء الذي جاء من نينوى ، والهواء الذي ظلّ قنينة ... والهواء ـ الهواء .

— ٣ —

يوم عالجنها بالحجر
ــ هذه الروح ــ قال الحجر :
هل الكون انتهيت ؟

ثم دفعنا الــى حجر . كي نطوف دهرا بــه ... أمس قلبته في يدي ... أيها الحجر النيزك . الحجر الابيض . الحجر الملون : اي زمان نطعنــا معا ! أي ارض حللنا : وأي مواطن لم تفتح وطنا ! ربما كنت لي ساعدا يــوم كنا صغارا ... وصرت الهراوه في الراس حينا . ولكننا الآن ندان : أنت الــذي جئت من اول الخـــون ... هـــل جئتني ؟ وأنا الناهض ــ الدهر ــ هل أنثني ؟

— ٤ —

يوم عالجنها بالشجر
ــ هذه الروح ــ قال الشجر :
كالسراب احترقت .

شجرات الطفولة . يا شجرات الطفولة ، يا شجرات الطفوله
لنكن مرة واضحين ،
لنقل مرة ان أقسى الحنين
ندبة في الجبين .
لنقل مرة ان أبهى الغصون
ما اختفى في العيون
لنقل اننا ما عرفنا الطفوله :

أنت يا شجرات الطفوله
كنت ممتدة . .
وأنا ... كنت أبكي .

— ٥ —

يوم أطعمتها نارها
قالت الروح :
اني استرحت .

طلقة هذه الروح ...
مجنونة . هي لا تشتري بالفداحــة غير عذاباتهــا . تستجير بـ « رامبو » لتأخــذ من شحنـات بنادقه الحبشيات واحدة . تهبط الليـــلَ في الماء مأخوذة بارتعاشات « بشّار » المحتضر .

طلقة هذه الروح ...
هل سوّرتها سماء ؟ وهل صوّرتها ممـــالك مثل المماليك ؟ هل أودعت في روائح طابوقة منــذ بابل ؟ نيـــران جنّ يغنّون ، أم نـــار مجمرة عند راس الشهيد ... أم الغائب المنتظر ؟
طلقة هذه الروح ...
كالريح تعوي وتذوي
وكالريح تذوي فتعوي
وكالريح تعوي ... و و و و و و و و و و ي ...

بغداد
٧ — ١١ — ١٩٧٨

نازك الملائكة

قناديل لمندلي المقتولة

((قصة للعطاش))

انتهى الفلاحون من عملهم في عزّ الصباح ذلك اليوم . وكانت الارض متشققة تلهث من العطش ، وهنا وهناك قد تساقطت حبات البرتقال الذابلة التي لا تجد في الارض ماء ولا حضنا حنونا ولا غـذاء ، فتتهاوى تحت ندى الصباح وهي تشهق بالبكـاء . وماذا بقي للفلاحين من عمل في مندلي ؟ الاشجار كلها قد يبست وذبلت غصونها وأوراقها ، ولم يعد هناك من يدفع أجرة للفلاح ، لان اكثر العائلات قد رحلت حزينة معذبة . أسرة بعد أسرة تركت مندلي لان الماء قد انقطع ولم يعد يجري . كان نهر السيبة قد جفّ ولم يعد يسقي تلك البساتين الروية الخضراء التي كانت ترقد في أحضان التلال . منذ الازل كـان نهر السيبة يروي مندلي . وتعاقبت مئات الاجيال في هذه المدينة الطيبة وهـي تشرب من السيبة وتسقي حقولها ومراعيها . وكـان الاطفال يولدون وما يكادون يبلغون السادسة من العمر حتى يتعلموا السباحة في النهر الحنون . والآن لم تعد امرأة في مندلي تجرؤ على الولادة في المدينة اليابسة الميتة . كلهم يرحلون ، كلهم يرحلون ، والنهر نفسه قد رحل .

وفي ذلك الصباح لاحت المدينة مهجورة لا يمشي في شوارعها الضيقة أحد . وخرج أسعد وعمر يحملان كتبهما المدرسية قاصدين بناية المدرسة التي تقع على بعد كيلومترين عبر البساتين الظمأى .

قال عمر الذي يبلغ تسع سنوات من العمر :

ــ الى متى نبقى نذهب الى المدرسـة وقد هجرها التلاميذ كلهم ؟

ــ يا عمر ، يا عمر ، أما قلت لك ان حضـور الدروس واجب وطني ؟ اننا يجب أن نتعلم لكي ندافع عن مدينتنا التي قتلتها ايران .

وانحنى أسعد والتقط بيده برتقالة عجفاء زاهيـة اللون ، ولكنها سقطت عن غصنها الذي لم يعد قادرا على تغذيتها . ورفعها الى مستوى عينيـه وهتف وهو يكاد يبكي :

ــ برتقالة مقتولة ذبحها العطش . لماذا تأتي ايران وتأخذ منا نهرنا ؟ هل أسأنا اليها في شيء ؟

وأخذ ينشج . وتذكر العم محمود ، الفلاح الذي يسكن الى جوار بيتهم ، وكان يخرج كل يوم الى بعقوبا بعربته ((البلشقة)) ويرجع وقد عبأها أواني مليئة بالماء وراح يسقي شجرات البرتقـال والرمان وهو يبكـي ويهتف :

ــ لا أترك أشجاري تمـوت ولو قتلني التعب . يوميا أرحـل سبعين كيلومترا لآتي بالمـاء . عيشي يا شجراتي واشربي ولو فتحت شراييني لأسقيك من دمي .

ويحزن أسعد ويهتف :

ــ حرام عليك يا عمي محمود ! ان المسافة بعيدة والماء الذي تأتي به لا يكفي .

ويقول الشيخ من خلال دموعه :

ــ سمعت ان الحكومة الايرانية قد ندمت وعذبهـا ضميرها على تحويل مجرى النهر ، ولذلك ستهدم السد الشرير وتعيد الماء الى نهرنا .

ويهزّ أسعد ، الذي يبلغ عمره خمسة عشر عاما ، رأسه ويقول :

ــ يا عماه لا تحلم ! لقد حولوا مجرى النهر ولن يعيدوه .

ــ أموت اذن في مندلي يا ولدي . أسقيها حتى أموت ولا يبقى في عروقي دم . وادفنوني تحت شجرة الرمان الكبيرة هذه .

سار أسعد وعمر صامتين فترة ثم عـاد الصغير يقول :

ــ أسعد ، يجب أن ننقطـع عـن حضور الدروس ونرحل مع أمي الى بغداد . الا ترى الصفوف خاوية الا من طلبة قليلين حزانى ولا يفهمون ما يقول المدرس ؟

ــ يا عمر ، يا حبيبي ، ان أبي في بغـداد لم يجد عملا حتى الآن ، ونحن لا نملك الا بيتنا البالي هذا .

ــ ولماذا لا نبيع بيتنا ؟ الا ترى انه لم يعد نافعا لنا ؟

وتنهد أسعد :

ـ أيها الصغير العزيز ، ليس من احد يشتري بيتا بلا ماء . ان مندلي كلها لا تصلح الآن للبيع ، لانه ما من أحد يدفع فيها دينارا . مدينة بلا ماء يا عمر ، مدينة بلا ماء .

وتخطى الغلامان سياجا واطئا يفصل بين بستانين . وسقطت ثلاث رمانات جافة . وكانت خطى الولدين تقع على أوراق كثيرة صفراء يابسة وتحدث خشخشة رتيبة . ولاح الحزن على الصغير عمر وسكت .

بعد ذلك لاح بناء المدرسة الفقيرة التي كانت تدرّس تلاميذ مندلي طيلة عشرين عاما . وكان الفرّاش عم مصطفى يجلس على دكة مفروشة بحصير ووجهه ذابل ، وهتف بالغلامين :

ـ أسعد وعمر ، انتما متأخران اليوم ، وسيغضب المدرّس عليكما .

قال أسعد وهو يتنهد :

ـ سمعنا امس ان المدرسة ستقفل ، واظن درسنا هذا آخر درس فيها ، ومع ذلك حضرنا لان علينا أن نتعلم وننقذ نهر السيبة ومندلي .

ودخل الغلامان الى أول غرفة على اليمين ، فأبصرا الاستاذ رفعت بقامته الطويلة وسمعاه يقول :

ـ المفعول به منصوب هنا .

ثم حين رآهما :

ـ حسنا تفعل يا عمر اذ تحضر الدرس معنا ، لان صفك قد أغلق اليوم بسبب رحيل الطلاب . تعال يا اسعد واجلس هنا ... ولكن ماذا ؟ ان عينيك دامعتان .

ـ لا شيء يا أستاذ ، انه ندى الصباح .

وجلس الغلامان ، وأخرج أسعد كتاب قواعد النحو ودفترا احمر اللون وراح يحاول أن يصغي الى ما يدور في الصف .

وانحنى رفعت على كراسة أسعد وسأله : « هل حللت التمارين ؟ » .

خجل أسعد وأطرق دون أن يرد . يا الهي ! هل بقي لنا جلد وعقل لنحلّ التمارين ؟ ان أمي عطشى لان السقاء الذي يحمل الينا ماء الشرب من بعقوبا مريض وقد انقطع عن المجيء . وهذا الصباح كان هناك كوب واحد من الماء وقد تقاسمناه نحن الثلاثة . خرجت من البيت وأنا أسمع نشيج أمي ، فلا الماء يأتينا ولا أخبار أبي تصلنا . ومن أحد الاصدقاء القادمين من بغداد علمنا ان أبي لم يجد عملا لكي يشير علينا بالرحيل ولم يعد في وسعنا أن نصبر .

لا ، لم يرد أسعد ، وتزاحمت العبرات على أهدابه السوداء . وسقطت عينه على الجدار المقابل وعليه خريطة بالية للعراق . ان العراق هو بلاد ما بين النهرين وهو يدفق بالماء الغزير ، ومن المحزن ان نهر السيبة هو وحده الذي ينبع من ايران ، ولولا ذلك لما حوّله أحد . وقال أسعد لنفسه :

ـ وحكومة ايران أليست مسلمة لتقطع الماء عن مندلي المسلمة ؟ وأية عدالة هي هذه ؟

ـ أسعد ! هل انت معنا ؟ اتدري ما يدور في الصف ؟

ـ نعم ، يبنى الفعل للمجهول ويتحول المفعول به الى نائب فاعل .

وراح اسعد يبكي ، ووجم التلاميذ وغصّ المعلم بريقه .

ـ أكمل يا أسعد ، صحيح يا أسعد ، وماذا بعد ؟

ـ اريد ان افهم يا أستاذ : هل النهر ملك لايران ؟ انا أقول : لا . النهر ملك الله رب العالمين ، هو أجراه وهو الذي حفر واديه . ونهر السيبة كان يجري في مندلي منذ أقدم العصور ، فبأي حق ...

وصعق المدرّس واستولى الخوف عليه وابتلع ريقه عدة مرات وقال :

ـ يا أسعد ، لا شغل لنا في موضوع النهر لانه موضوع سياسي . ونحن هنا لدراسة النحو .

وقال تلميذ طويل القامة من آخر الصف بلهجة ساخرة لا تخلو من الحزن :

ـ الحكومة تمنع الكلام في هذا الموضوع ، وتعاقب من يفعل ذلك .

وصرخ أسعد :

ـ الحكومة تمنع ، الحكومة تمنع ! دعونا نقول اننا عطاش يا ناس . دعوني أخبركم انني تركت امي تبكي لاننا عطاش .

وامتلأ وجه المدرس بكآبة مفضوحة . وخاف ، وحاول الا يظهر عليه ذلك ، لان نوري السعيد يصادر حتى الكآبة ، وكل الناس يعلمون ذلك . وراح أسعد ينشج وليس من عادته البكاء ، لانه يعتقد بما يقوله العوام من ان الرجل الحق يجب الا يبكي ، والبكاء والنواح مخلوقان للفتيات . وعاد الاستاذ رفعت الى موضوع المفعول به ونائب الفاعل ، وراح يشرح للطلاب مستعينا بالامثلة . وجرّب أسعد بصعوبة أن يصغي ويستوعب .

البرتقالة كانت مكتنزة ثم امتصها الذبول قبل ان تكون ذات حلاوة . والبرتقال يموت ، يموت في كل مكان . المفعول به لا ينصب الا بفعلٍ متعدّ . يا الهي ، ما اطول أنف الاستاذ رفعت . عيّن نائب الفاعل في الجملة الآتية : نهر السيبة جفّ جفافا تاما وماتت الاسماك فيه . أمي ، سيأتي السقاء بالماء ، لا تعطشي يا أمي . لا تضرب الفقراء . الفقراء مفعول فيه يا ولد . أهو مفعول فيه أم مفعول به ؟ البرتقال والرمان يتساقط .

نهر السيبة هل هو فاس ؟ نهر السيبة كـــان يجب أن ينبع من العراق لا من ايران .

والتفت رفعت الى أسعد ورأى عينيه راقصين . دامعتين . وودّ لو ركع الى جانبـه واحتضنه . ولكن كيف يفعل ؟ لقد اعملت سلطة نوري السعيد سبعين من سكان مندلي لمجرد انهم احتجوا على ايران لقطعها النهر. ويعلم رفعت جيدا ان شاه ايران دفع رشوة كبيرة الى نوري السعيد لكي يسكت عن عملية قتل المدينة الرائعه الخضراء . وبالارهاب أسكت رئيس الوزراء كل الاحتجاج. ولم يعد أحد يجرؤ على الاحتجاج .

هل لنا من انسان نشكو اليـــه ؟ وبمن نلوذ ؟ لقد ذبحوا مندلي مسقط رؤوسنا وعروس البساتين وقطعوا نهرنا بلا رحمة . أقرأ يا ولدي . لا يقع نائب الفاعل الا بعد فعل متعدّ . عم محمود ، لا تسق الشجرة واسقنا لاننا عطاش . أين نائب الفاعل ؟

لم تكن في الصف حماسة للمفعول به . ونام نائب الفاعل وأغفى على لوحة الكتابة . وراح السقاء المريض يسعل سعالا شديدا . عين نائب الفاعل هنا . يا أهالي مندلي اصمدوا ولا ترحلوا . نائب الفاعل مرفوع . أمي الحبيبة لا تبكي سيأتي السقاء وسيأتي أبي وقد وجد عملا . والمفعول به ونهر السيبة سيتعانقان ، وينسكب الماء غزيرا على ... جملة الفعل المبنيّ للمعلوم . هـــل حصل نزاع بين ايران والمفعول به ؟ ما أقســـاك أيها المفعول المطلق عندما تحرمنا من ماء نهرنا ؟ سيبة ، سيبة ، دعوني أموت في ماء السيبة ولكن نائب الفاعل مجرم . لقد خطف النهر ، ومن وراء بساتين الرمان والبرتقـال الميتة يضحك نوري السعيد . آه ، أريد كتفا أسند اليه رأسي وأبكي . أيها الفعل المبني للمجهول : انت الـذي حوّل نهر السيبة ! لقد أقاموا سدا علـى مجرى كـل الافعال المبنية للمعلوم ... واختنق المفعول بـه ورحل عن مندلي .

ــ يا أستـاذ رفعت ، انا عطشان ، اسمح لي أن أذهب الى عم مصطفى فان عنده سراحية ماء .

ــ لا ، لا يا عمر . لا تغادر الصف فان عندنا هنـا جرة ماء . خذ ، هذا كوب تشرب به .

ونهض الصغير عمر ، وسكب الماء من الجرة فاذا هو مختلط بالطين . وحار كيف يشرب . وأخيرا أغمض عينيه وكرع الماء دفعة واحدة . كـــانت حبات الطين تصوّت تحت أسنانه .

وعند هذا لم يعد أسعد يصغي الى ما يدور فـي الصف مطلقا . فقد خطر له حلم رائع جنح خياله ورفعه الى أوج الحماسة . كان يحتاج الى أربعة أو خمسة من زملائه التلاميذ ، وكلهم غاضبون ورافضون وموتورون ، ويقودهم هو في النصف الثاني من الليلة عبر الحـدود الايرانية . وهو يعرف الطريق بين التـــلال جيدا ، وموضع تحويل نهر السيبة قريب من الحدود . ولسوف ينزل أسعد في النهر وهو يتقن السباحـة . ولسـوف يفكّ السلسلة فينفتح الباب الحديد ويعود الماء يجري في نهر السيبة .

هكـــذا راح أسعد يحـــلم بعينين مفتوحتين . وانبجست قطرة فرح في تلك العينين . ونام المفعول به هانئا على خديه . آه لو تحولت كل المفاعيل الخمسة الى جرة ماء يسقي بها أمه المسكينة العطشى . ونهر السيبة، ترى أين ذهب ماؤه ؟ وعبر أية حقول فارسيـــة خضراء أصبح يجري ؟ وهل تدري يا نيرنا اننا نموت من العطش. وان أشجارنا قد يبست وبرتقالنا لم يعد له عصير ؟

ووضع أسعد كفه اليسرى على رأسه وعاد الـى حلمه الاول . هذه الليلة بعد الثانية عشرة سيأخذ رفاقه ويعبرون الحدود الايرانية . ولكن انى له أن يعـرف مكان السد الذي حول نهر السيبة وقطعه عن مندلي ؟ وأحس ان جبينه يشتعـــل بالحمى . ومسه بأصابعه فأحس انه يكويه . تراه محموما ؟ ان يديه ترتعشـــان للفكرة الرائعة . آه يا امي سيكون ولدك منقذا لمنـدلي هذه الليلة ، وستروين ، ستروين يا أمي بالماء الصافي !

قال الاستاذ رفعت :

ــ أسعد ، اعرب هذه الجمله : « المروج قطع عنها السماد » .

ورفع أسعد رأسه وراح يعرب :

ــ المروج مبتدأ مرفوع رفع عنه الماء ، وقطع فعل ماض مبني للمجهول وهو راغم وحزين ومتشقق . وعنها جار ومجرور بالسلاسل والسد الحديدي . ما العبارة لا قطع عنها الماء . الماء نائب فاعل معذب يريد أن يركض ولا يستطيع .

ولاح الخوف على وجه المدرس وهتف برفق :

ــ يا اسعد ، سألتك ان تعرب (المروج قطع عنها السماد) ولا يصح أن تغيّر العبارة عند اعرابها .

ــ اعذرني يا أستاذ ، اني تحولت الى شظايا فعل مبني للمجهول . ولو كان مبنيا للمعلوم لجرى المـــاء معطرا في نهر السيبة الميت. ولكن الافعال كلها مقصوصة الاجنحة لا تستطيع الطيران . وأبي يحمل على كتفيـه مائة نائب فاعل ثقيلة جدا وهي تعرقل بحثه عـن عمل نعيش منه في بغداد . ونحن ونهر السيبة والعم مصطفى كلنا عطاش . وأمي تسلق في القدر مفعولا به لنتغدى هذا اليوم ، وتسلقه بماء النار لاننا لا نملك ماء .

وهتف الاستاذ رفعت :

ــ ولدي أسعد ، سوف تغلق المدرسة اليـوم ، وستعود كلَ المفعولات بها الى كتاب القواعد ولا يعـود أحد يمضغها .

وفي هذه اللحظة دق جرس المدرسة ايذانا بانتهاء الدرس الاول ، فنهض التلاميذ متثاقلين ، ومضغ عمر

بقايا الطين الذي شربه مع كوب الماء . واقترب اسعد من التلميذ المجاور له وهمس :

ـ أحمد ، اريد أن أتحدث اليك فيموضوع مهم . ابق في الصف معي .

واضطر أسعد الى ان يصرف أخاه عمر ، ولكنه قال له :

ـ انظر يا عزيزي ، هل تعرف غسان ومرتضى وابراهيم ؟

ـ غسان هو التلميذ الطويل ؟

ـ أجل وهو هناك ، انظر ! ومعه ابراهيم . اخبرهما ان يأتيا الى هنا حالا ، وابحث عن مرتضى ودعه يحضر .

وانصرف عمر، وبعد لحظاتوصلغسان وابراهيم.

قال الاول :

ـ هل هو اجتماع صغير يا أسعد ؟ أنا وابراهيم نريد الذهاب الى بعقوبا لاحضار برميل كبير من الماء ، فالمدينة عطشى والسيبة أصبح يابسا تماما .

ـ عندي لكما عمل أهم من احضار الماء ، لان هناك في الاماكن المنخفضة من السيبة بقع مياه يمكن الشرب منها . وأنا اريد أن نحل مشكلة الماء من أساسها .

وفي هذه اللحظة وصل مرتضى وهو شاب عمره خمسة عشر عاما ، وعندما رأى زملاءه لم يتكلم ، وجلس وعلى وجهه مسحة واضحة من الجد ، وكأنه رجل مكتمل يحمل أعباء الحياة .

وبدأ أسعد الحديث وشرح لهم خطته بلا تطويل :

ـ يا أصدقائي ! نحن فتيان مندلي وشبابها ، وعلينا يقع عبء انقاذها منالجفاف والموت ، وأنا سأذهب الليلة عبر حدود ايران ، واسبح وأكسر السد الذي حولوا به النهر عن مدينتنا .

وهتف ابراهيم :

ـ هذا عمل خطير يا أسعد ، وقد يقتلك حرس الحدود !

ـ اني أعرف كيف أعبر الحدود دون أن يلاحظوني، وقد فعلت ذلك مرارا لمجرد المتعة . ومهما يكن ، سأذهب الليلة لاعيد الماء الى مندلي ، وأنا احب أن تصحبوني الى هناك وأنتم شبان المدينة وسواعدها ، فهل تأتون ؟

وسكت ونظر في وجوههم واحدا واحدا ، فاندفع مرتضى وقال بهدوء :

ـ أنا أول من يذهب معك ، وسأحتمل كل النتائج الممكنة . والمهم أن تعلم السلطة الايرانية اننا عملنا شيئا ولم نخضع للجور والطغيان ساكتين .

ودبت الحماسة في صدر غسان وهتف :

ـ أنا أيضا معكما ، وعندي بندقية صيد أستطيع ان احملها لأستعملها في حالة تعرضنا الى خطر عند نقطة الحدود .

ولاح ان غسان انفعل أيضا لانه قال في حسرة وحزن :

ـ القضية اكبر منا يا جماعة . وأنا مستعد لمصاحبتكم ، ولكن قلبي يحدثني بأن كارثة تنتظرنا ، لان عبور الحدود ليس أمرا سهلا ، وقد مات ما يقرب من عشرة أشخاص ببنادق الحرس الايراني لمجرد انهم تخطوا الحدود .

وهتف أحمد :

ـ لا بد لنا من أن نعترف بأن رغبة الحرسالايراني في معاقبة من يجتاز الحدود بلا رخصة أمر طبيعي ، وذلك من حقهم . والايرانيون مسلمون مثلنا ، وهم يحبوننا ونحن نحبهم، هذا مع اننا غاضبون أشد الغضب على حكومتهم التي سرقت نهرنا واعطشت المدينة وقتلت بساتينها .

وصاح اسعد :

ـ اذا كانوا مسلمين حقا ، فلماذا يقتلون مدينتنا الاسلامية ؟

ـ يا أسعد ، يا أسعد ، ليس شعب ايران هو الذي حول مجرى السيبة ، وانما فعلت ذلك الحكومة . والشعب هناك يكره الحكومة وهو ثائر عليها .

ـ أنا لا أكره الشعب الايراني ، وانما احبه كما احب كل الشعوب المسلمة . ويلوح انك على صواب ، لان تحويل نهرنا تم بأمر حكومة الشاه ، وقد قرأت منذ يومين مقالا مترجما عن اللغة الايرانية في جريدة « النهضة » التي تصدر في بعقوبا فيه ان الشعب الايراني ساخط على الشاه غاضب لتحويل نهر السيبة عن مندلي .

وهتف غسان :

ـ هذا غريب . كيف جرؤت « النهضة » على كتابة هذا دون أن تغلقها سلطة نوري السعيد ؟

ـ لقد أوقفتها وهي الآن لا تصدر . ونوريالسعيد قد تسلم عشرة ملايين دينار من شاه ايران ثمنا لسكوته عن تحويل السيبة وقتل مدينتنا .

وهمس مرتضى :

ـ يا جماعة لا ترفعوا أصواتكم . وما دمنا متفقين على القيام بالمغامرة فلنضع خطة كاملة تضمن نجاحنا .

وأسرع اسعد يقول :

ـ اول ما يجب أن نتفق عليه هو توقيت مغامرتنا. وأنا اقترح أن نتحرك في نصف الليل تماما ، لان حرس الحدود لا يتوقعون أن يعبر اذ ذاك أي أحد .

وبادر الجميع يوافقون ، الا ابراهيم الذي لاح مرتبكا ، وقال أخيرا :

ـ أيها الاخوة ، أنا احب أن أصحبكم ، ولكن اسمحوا لي أن آخذ موافقة أبي .

وقال مرتضى بهدوئه الرائع :

ـ تأخذ موافقة أبيك ؟ لا يا ابراهيم . انك بذلك تفشي سرنا ، واذا ما عرف آباؤنا خطتنا ، فسيمنعوننا بالقوة من الذهاب .

وقال أسعد :

ـ ابراهيم ! هذه مسألة وطنيـــة ، ويمكنك أن تتصرف بلا أذن مـــن أبيك . الا تحب أن تنقذ مدينـة مسلمة مظلومة ؟

وقال الآخرون أشياء مماثلة لهذا ، ووافق ابراهيم على الذهاب ، وان كان لم يتحمس . وكانت على جبينه سحابة حزن . هكذا كان ابراهيم دائما ، وتلاحظ عـلى عينيه شبه ضبابة من دمع تضفي جمـالا كئيبا عـلى وجهه الوسيم . لقد ترك أباه في البستـــان يجمع أي رمان يجده لم يبلغ من الجفاف مبلغا يجعله غير قـابل للاكـل .

وقال ابراهيم لابيه بلهجته الحالمة :

ـ يا أبي ، استرح ولا تتعب نفسك في جمع رمان جفّ من العطش قبل أن يصبح حلوا .

ـ ابراهيم ، ابني ، اذهب الى المدرسة وستجـد رمانا حلوا عندما تعود .

وكاد الولد يبكي . ان والده شيخ فان يتوكأ عـلى عصا ، ويجب أن يقبع في البيت ويرتاح . ثم ان هـذا الرمان لا نفع فيه .

وخلال هذا اندفع الصبي الصغير عمر ودخل الغرفة ركضا وهو يصيح :

ـ جاءت الشرطة ، الشرطة يا أسعد .

ونهض الشبان اليافعون فزعـــين ، واطلوا من النافذة فرأوا تلميذا لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة وقد قبض عليه ثلاثة من رجال الشرطة واحدهم يضربـه على راسه والولد يبكي ويصيح . وكان يقف عـلى باب المدرسة مديرها وبعض المدرسين ، وقال أحد رجـــال الشرطة :

ـ يا مجرم ، أليس عندكم ماء في البئر ؟ لمـاذا لا تشربون من البئر ؟

وصاح الولد وهو ينشج ببكاء شديد :

ـ ان ماء البئر شديـد المرارة ، وهو لا يصلح الا لسقي شجرة التوت .

ـ يا حقير ، طـــويل لسانك وما زلت صغيرا ، لماذا تشتم شاه ايران ؟

وقال الصبي ببراءة وهو يواصل البكاء :

ـ لانه أخذ ماء السيبة وتركنا عطاشا بلا ماء .

وضربه الشرطي بمقبض بندقيته في بطنه فسقط الولد على الارض يتخبط ويدفر برجليه دفرا عنيفا .

واغلق ابراهيم النافذة وجلس . وعاد الاربعـــة الآخرون وفي عيونهم شيء يغلي ، وهتف مرتضى :

ـ ماذا نستطيع أن نفعل أمـــام شرطة نـوري السعيـد ؟

قال له أسعد :

ـ ليس كل الشرطة قساة ومجرمين . ان الشرطة أفراد من الشعب مثلنا . وهم مجرد مستخدمون لـدى حكومة نوري السعيد . وكثيرون منهم غاضبون مثلنـا ولا حيلة لهم .

واتفقوا على الخطة فورا . تواعدوا أن يلتقوا فـي نصف الليل عند أشجار الرمان القائمة في آخر مندلي .

وعندما انتهوا قال ابراهيم :

ـ سأذهب معكم وسأكون أنا الذي ينزل في المـاء وبكسر السلسلة .

وبدأ ينتحب ويبكي وقال :

ـ ان الولد قد مات .. اسمعوا الصراخ .

وكان يجيء من خارج النافذة عويل وصراخ . وكان صوت الشرطي يتعالى :

ـ مجرمون ، سفلة ، منحطون . سنغلق هـذه المدرسة اللعينة !

* * *

انتصف الليل . وكانت مندلي اليابسة الحزينـة مطفأة الاضواء . ونسيمها المجمبل يمرّ على الاشجـار الجافة ويحدث صوتا . وكان في السماء قمر ذابل في النصف الثـــاني من الشهر . وخرج ابراهيم من بيت أبيه . وأقفل الباب بهدوء دون أن يحدث صوتا . وكان يسير مطرقا مغرقا في الحزن والتفكير . كانت لا تفتأ تعاوده مشاهد موت الـــولد الصغير فيغصّ . وتذكر كيف وقف ساعة الى جانب الصبي المقتول وكانت أمـه تعول عويلا يمزق القلوب وتنادي :

ـ أريد ولدي . أعطوني ولدي . أعطوني وليدي .

وحضر الطبيب ، وانحنى على الارض يفحص الولد المقتول . وراح يقلبه ليعرف سبب المـوت . واكتشف دماء غزيرة تسيل من مؤخرة الصبي . ووقف حزينـــا وقـــال :

ـ نزيف في الامعاء ، نزيف حاد . بماذا ضربوه ؟

ـ بمؤخرة البندقية وكانت ضربة شديدة فسقط الولد حالا .

وصرخت الام وهي تبكي بكاء شديدا :

ـ لماذا يموت ولدي بنزيف في الامعـاء ؟ ولمـاذا لا يموت هذا الشرطي بالنزيف ؟ يا رباه ! أعطوني ابني اريد ابني !

وقال رجل شيخ واقف مع الجمهور :

ـ يا أختي لا تأسفي ! ان الله عادل وهو ينتقم من المجرمين . ولا بد أن يموت هذا الشرطي ميتة فظيعة .

وصل ابراهيم في سيره حافـــة النهر اليابس .

ـ التتمة على الصفحة ٦٦ ـ

مالك حدّاد

د. حسن فتح الباب

لو تسمعني مالك حداد
تستوقفنا قبل غروب الشمس على شاطىء وهران
لأمدّ اليك يديّ
أستبطئك الرحله
لن أنشد لحن وداع
يا كوكبنا الآتي فوق عباب الليل
يوم يكون الطوفان وينقضّ الويل
يوم يموت الموت
يا شمس الفقراء

* * *

أبكيك صفيّ الثوار الغرباء
أبكي هذا الفجر سيمحوه الليل
أتذكر انك تأتينا فوق صحائفك الخضراء هلالا
كل مساء لتضيء الظلمات
أتذكر فيجفّ الدمع
مالك هل تسمعني ؟
وهران تردد أشعارك حرفا عربيا
تفتح كل صباح كراستها
وتراك وتقرأ لك وتغني
وتقاتل كي تحيا لغة أبي ذر وعلي
لم تصبح مالك منفيا في كلمات الغرباء
صرت نبيا عربيا موطنه الآفاق الزرقاء
طيفا يسكن أبياتا بيضاء لأولاد الشهداء

* * *

أعتصر القلب لمرآك وأرجع مكسور القلب
أعلم انا من قبل تلاقينا
كانت سنوات المجد
لكن الزمن الآتي أقسى
فلنبحث عن قلبينا خلف الغابات المحترقه
وليخفق صدر واحد
القاك على رملة وهران فتأسى
لرفيق منفيّ في أيام الحزن
وتمد يديك اليّ
تستعجلني العوده :
وطنك في المحنه

* * *

اجبن ؟ أم أحمل قدري وأسير ؟
أحمل وطني في العينين الذابلتين ؟
أحمل وطني في العينين الضاحكتين ؟
أمضي عريان الصدر ؟
سلاحي لغة الاموات الاحياء المقهورين ؟
أم أحمل كفني محنيّ الرأس على مائدة الصلح ؟
أحيي زمني
أم أتنصل من وعدي وأغني : القلب جريح
الحرف لديك المنفى مالك حداد
ولديّ ضريح

* * *

لن تغرب شمسك يا مالك
وسنبقى رفقاء
في سنوات المجد وأيام الحزن
فلنحكم قبضتنا فالليل طويل
لن أنشد معزوفة شجو للجرح
فما زلت قويا رغم الموت
والفجر على أبواب الفسق الاحمر
يا كوكبنا الآتي فوق عباب الليل
يوم يكون الطوفان وينهار الويل
يوم يموت القهر الاسود والموت

جامعة وهران (الجزائر)

ثلاث قصائد

ـ الى صديقي في الحزن ... سعدي يوسف ـ

حسين جليل

١ ـ المطر :

(١)

على عينيّ ،
تتهافت قطرات من مطر الليل ،
وفي ذاكرتي ،
ينثال ، على اجنحة الريح ، رماد نجوم الحب ،
فأسمع في صمت الصفصاف النهري ؛
جرح العشاق المغدورين .. يهمس ،
للقمر الازرق كالفضة ،
الاخضر كالجمرة ،
فيما تتالق في الافق المائي ،
عينا ذئب اعمى .

(٢)

في الزمن الوغد ،
وبين أفول الزهرة وتثاؤب اشجار الغسق القطبي ،
تتعرى أنثى الحرية ... للمغلوبين ؛
ترقص حافية لمجوس النار السرية ،
فيما يتصادح ، عبر الجدران البلورية ،
صوت حواة الشعر ... نحاسيا ،
تتصادى ، فيه ، اجراس لم يسمعها
بدو الصحراء الكبرى
وعلى الرمل ،
في وهج الشمس ،
بعيدا عن أفياء الواحة ،
قلب غريب الدار ... يصير سحابا
يمطر في ارض اخرى .

(٣)

ما أندى من مات على النبع ؛
ولم يكتب ألم الفقراء ؛
على سيف من ذهب .... شعرا .

(٤)

في ساعة موتي ،
سألثم صوتي ،
وسأطلق بقيا قلب ... يهتف .
عبر الاسوار ،
عبر خطوط النار .
ما أروع أشجار الحب الاول .
في حزن المختبئين على القمة .
لا تثمر الا جمرا .
ما أزكى ليل الاسرى
يتساقون الكلمات العذراء
وينتظرون « الصخرة »
تورق ؛
أو لا تورق .
فجرا .

(٥)

في زمن ....
ما زال الخائن ، فيه ، يتسلق أهرام الموت الالكتروني ،
ويملأ كفيه السوداوين .. بدموع النيل المحزون .
ليغسل وجهـا اخشيديا .. ضرب النخاسون على صدغيه « نجمتهم .. » وشما أبديا .

في الزمن الوغد ،
ما أعمق جرح الشعر ،
وما أقدس في محراب الصمت الأنقى
حين يصلّي .
للوطن المقتول .
نبي مجهول ،
بين الآلهة الحجرية .
سرا .

(٢) الليل :

بين الهمسة .. واللمسة ،
يتلوى سريا ... خيط كبريتي النكهة واللون ،
فيما تتخافت ، في صمت دخان الليل الاشوري ،
عيون خضراء .

وعميقا ،
عميقا كالموت ،
كان نحيب العنقاء المسمارية ،
وفوق هباء الرمل ... وبين العشب المائي .
كان السمك الناعم بالدفء ،
يأنس بالشمس المسحورة ،
كفا حانية .. تترقرق في غسق الذاكرة الطينية ،
وعلى بوابة سنحاريب المثقل حدّ اللعنة بالحب ،
كانت عارية ... ترقد عشتار
تحلم بالصفصاف المورق في ضفة النهر المنفي وراء الكثبان ،
وتنصت للريح الشرقية ،
تهمس للآلهة الحجرية :
أحزان الزمن المتسلل بين جبال النار .
وبعيدا كالنجمة ،
ووحيدا ....
كان الصوت القادم عبر الاسوار :
آه .... ما أقصر عمرك يا « أنكيدو » .
ما أطول ليل أسير الكلمات ،
الواقف عريانا .. بين المعشوقة والسيف .
تتألق في عينيه .. الجمرة والنبع ،
وفي رئتيه ..
تتوهج أنفاس طيور نائية
يفصلها كون مجهول الآماد
عن أرض الشعراء .

(٣) النجمة :

(١)

قطرة ،
قطرة ،
عبر ليل المسافات .
بين احمرار الثرى ،
واخضرار الندى ،
تسكب النجمة الصامته
قلبها ،
وعلى الريح ،
مثلما الظل في الماء ،
جناحان ..
يلوحان ،
يغيبان ... في الزرقة الخافته .

(٢)

بعيدا ،
وراء الذرى
في السماء التي لا حدود لها
في السماء التي يولد العاشقون فيها
بلا وطن .... أمة واحده
تحكي العصافير في الاسحار
عن بلبل ... أخضر العينين
في الليل .. سرا .. يغني
لاحمرار الثرى ،
لاخضرار الندى ،
لعيون ترى ... نجمة شارده .

(٣)

لنا الله ،
ان انكرتنا العيون التي لا ترى
في احمرار الثرى ،
في اخضرار الندى .
لهفة النخل والساقيه .
لنا الله ،
ان ضاقت الارض يوما بأحزاننا
بأزهارنا الذاويه .
بعيدا .... لنا في السماوات ،
بيت من العشب ،
في وطن ... سوره الماء ،
والنجمة النائيه .

(٤)

وردة الحزن ... في القلب ،
منذ بدأنا السرى ،
ومنذ رأينا الصدى ،
وسمعنا الشذى ،
وعشقنا عيونا ترى .

* * *

وردة الحزن ... في القلب .
تعبق بالحب ،
بالطيبة الغابره .
آه ...... يا ليل ،
يا ملاذ الحكايات ،
يا مخبأ العشق والحزن ،
ويا موعد النجمة العابره .

بغداد

... عن الثقافة وَوزارتها ... في ضوء البكاء ... والضحك البهيج !

بقلم سامي خشبة

من الطبيعي ان يغضب « المثقفون » في مصر بسبب حل الكيان المستقل لوزارة الثقافة (احدى الوزارات التي انشأتها دولة ٢٣ يوليو) . ومن الطبيعي أيضا أن يعلنوا هذا الغضب ، فيتشكل « وفد » من شيوخهم ، جمع يمينيا معتدلا ، ويمينيا متطرفا ، ويمينيا محدثا ، ويمينيا بالضرورة ، لكي يتوجه لمقابلة رئيس الوزراء لمحاولة الاستفسار منه عما اذا كان الغاء وزارة الثقافة يعني الغاء الثقافة ؟ فلما عرف أعضاء الوفد انه لا نية هناك لالغاء الثقافة بالغاء وزارتها أو الغاء كيانها المستقل، اطمأنوا ، وعادوا لكي يشيعوا الطمأنينة التي أثلجت صدورهم ، ويؤكدوا لكل المثقفين ان الثقافة بخير ، ولا داعي للانزعاج ، وان الهدف من الغاء وزارة الثقافة هو على عكس ما موهت عليهم ظنونهم ، أي ان الهدف هو المحافظة على الثقافة وجعلها ديموقراطية (أي جعلها شيئا يفعله الناس بتلقائية اذا شاؤوا ، فاذا شاؤوا أيضا لم يفعلوه !) .

ولكن من الطبيعي أيضا الا يقتنع أناس آخرون ، يتصفون بالعناد ، وربما كانوا مغرضين . ويتهمون أحيانا بالتطرف (أي باليسارية) ، فاذا لم يكف هذا الاتهام لاسكاتهم ، فبالعمالة أو الزندقة أو ما شئت من ذميم النعوت . فيكتب هؤلاء العنيدون كلاما عن أهمية وزارة للثقافة في بلد فقير أو في دولة نامية ، لا يمكن أن تكون الثقافة فيها ترفا ، وهي بعد لا تستطيع (أي الثقافة) اذا كانت جادة أن تكون سلعة ، لانها سوف تطرد من السوق غصبا ، وان وجود وزارة للثقافة ليس وقفا على الدول الشيوعية أو تلك التي تسللت اليها الصفات الشيوعية بدليل وجود وزارة للثقافة في اليابان أو في كوستاريكا . ثم لان الثقافة ـ في ظروفنا ـ يجب أن تكون خدمة تقدمها « الدولة » لـ « ابنائها » ولا يتوقفون لحظة حتى يتساءلوا : هل ينبغي أن يكون الناس أبناء للدولة ؟ وما هي الدولة التي تتبنى الناس ؟

المهم ان هؤلاء العنيدون أنفسهم ، هم الذين يكتشفون أثناء التحليل ـ الذي يأتي عادة عندنا بعد أن يبدأ التعبير عن الغضب بوقت طويل ـ يكتشفون أن ليس ثمة كبير فارق بين أن تكون هناك وزارة ذات كيان مستقل للثقافة أو لا تكون ، وان لم يكتشفوا السبب « العميق » لهذا التطابق بين الفعل والفعل .

فالهيئات والشركات والادارات المختلفة التابعة للوزارة موجودة ، لم يمسها شيء ، ونشاطها لم ينقص كثيرا أو قليلا عما كان متوقعا لو ان الوزارة ظلت بكيانها المستقل . ووزير يحمل « لقبها » يجلس في اجتماعات مجلس الوزراء ، ويذهب لافتتاح بعض « المناسبات » الثقافية ، أو التي تشبه المناسبات الثقافية .

ان هيئة السينما توقفت عن انتاج أو الاشراف على انتاج أي نشاط سينمائي منذ وقت طويل . ويقال ان الانتاج السينمائي في مصر كلها هذا العام لن يتجاوز عدده عشرة أفلام طويلة ، ونحو هذا العدد من الافلام القصيرة ، انتج منها حتى الآن (في الشهر الحادي عشر من العام) ستة أفلام طويلة ، وسبعة أو ثمانية أفلام قصيرة) ، ليس بينها بالطبع فيلم واحد من انتاج « هيئة السينما والمسرح والموسيقى » رغم انها تواظب منذ سنوات عديدة على « اقراض » بعض المنتجين ، وتقوم أحيانا (عن طريق شركة التوزيع التابعة لها) بتوزيع الافلام المنتجة من قروضها ، لتضمن على الاقل أن تستعيد قرضها دون ربح ، حلال او حرام . هذا بعد أن أعادت « الدولة » لابنائها ، الملاك الاصليين ، معظم استديوهات الانتاج أو تكتفي بتأجير ما ظل بحوزتها للمنتجين من ابنائها ، وأعادت الى الملاك

الاصليين (أبنائها) كل دور العرض ، فالغت عمليا أي وجود فعلي لها في ميدان الفن السينمائي .

وهذه الهيئة نفسها لم تعد تنتج مسرحا يتلاءم مع حقيقة انها تمتلك تسع دور مسرحية في القاهرة والاسكندرية (احداها تؤجر للفرق الخاصة بانتظام) وتتبعها خمس فرق مسرحية بعضها له من العمر ستة وثلاثون عاما كاملة .

في العام الماضي انتجت الفرق الخمس ست مسرحيات ، ثلاث منها كانت « غنائية استعراضية » كتبها شخص واحد عن شخص واحد ضد شخص ثالث وضد تراث هذا الثالث وأعماله الرديئة . وفي العام الحالي لم تنتج هذه الهيئة سوى مسرحيتين ، في الصيف ، وهي تفكر منذ شهور في انتاج شيء من المسرح . لان هذه احدى وظائفها على أي حال ، وأخيرا شرعت في اعادة عرض احدى الغنائيات الاستعراضية من العام الماضي ، واحدى المسرحيات غير الغنائية الاستعراضية من العام الاسبق ، وما زالت تفكر في انتاج مسرحيتين مترجمتين في اثنين من بيوتنا المسرحية ، لانه : « لا توجد نصوص صالحة » بشهادة « المكاتب الفنية » من « أهل الرأي » .

وهذه الهيئة نفسها مهتمة ــ وهذه شهادة حق ــ بالموسيقى والغناء . فهي تقيم مرة كل أسبوع في الشتاء ومرة كل شهر في الصيف . حفلا للموسيقى والغناء العربيين . وتقيم في الشتاء حفلات لاوركسترا القاهرة السيمفوني (فان للقاهرة أوركسترا سيمفونيا ، اذا لم يكن احد يعرف ، فتأملوا) ، وستضيف أيضا بعض الفرق الموسيقية الاوروبية أو الاميركية . لتقديم كونسيرتات (حفلاتعزف وسماع) لتقديم اعمالمختارة من الموسيقى الغربية الكبرى أو الحديثة الخفيفة) . وفي هذا الصدد ، نعجل بذكر ما تتميز به الموسيقى من علاقة واهنة بالتفكير العملي أو النقدي في الحياة والواقع ، وعلاقتها بأي موقف «نقدي» مباشر من الحياة والواقع لا تكاد توجد ، خاصة اذا كانت موسيقى غريبة عن المكان والزمان ، أو اذا كانت موسيقى تعزف على سبيل التطريب وحده ، وفي سياق يعزلها عن أي « فن مفكر » .

ونستطيع ان نسرد أشياء مشابهة عن الهيئات الاخرى ، التابعة لوزارة الثقافة (حينما كان لها كيان مستقل) والتي أصبحت تتبع وزارة التعليم والبحث العلمي والتعليم العالي والثقافة ، المسؤولة عن انشطة الفنون الجميلة ، أو الثقافة الجماهيرية ، أو عن نشر الكتب وتوزيعها ... الخ .

ولكننا لن نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن « الاكاديمية العليا للفنون » التي تضم معاهد للفنون المسرحية والسينما والموسيقى (يسمى كونسيرفاتوار ، من باب تعريف الشيء باسمه وليس من باب المباهاة او التفرنج) والباليه (تخيلوا !) .

فهذه الاكاديمية بمعاهدها ما تزال تعمل : تعقد في كل سنة « امتحانات » لاختبار قدرات ومواهب واستعدادات الراغبين في الالتحاق بها ، وتقبل في كل سنة ما بين ألف الى ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، المفروض انهم سيتعملون فيها أشياء كثيرة عن فنون المسرح والسينما والموسيقى والرقص ، من تاريخ الى تنفيذ . ومن تأليف الى نقد ، ومن اخراج الى عزف ، ومن سيناريو الى تصوير ، ومن ديكور الى كوريوغراف ، ومن اضاءة الى صوتيات ، ومن فلسفة الى علم جمال ، ومن القاء الى اداء ، ومن أدب الى دراما .. الخ .. الخ.

وفي كل عام يتخرج من هذه المعاهد ألف الى ألفي شخص ، دربوا على كل هذه « المهن » الفنية ، يضافون الى عشرات الالوف من الجامعيين ، الذين يفترض انهم تعلموا كثيرا ، وأصبحوا «مثقفين» ، وذلك طبقا للفهم الشائع الآن الذي يسوي بين المتعلم والمثقف. ولكن ما يهمنا ، هو ان هذا المتعلم ، لا شك ان من حقنا أن ننتظر منه أن يكون « محتاجا » الى غذاء « عقلي » وروحي من نوع خاص ، ومختلف قليلا عما يمكن أن تتيحه له أدوات « التغذية الثقافية » ، العقلية والروحية . المتوافرة الآن في مصر .

والمدهش هو ان ما نراه الآن ، من « الثقافة فى مصر » ينقض تماما تلك المقولة الشكلية : مقولة أن يحتاج المعلم المصري . في اطاره الاجتماعي الراهن ، غذاء عقليا وروحيا من نوع مختلف عما تتيحه منابر تتراوح بين الشيخ كشك وفايز حلاوة ، وبين مجلة « الدعوة » (التي يصدرها الاخوان المسلمون) أو مجلة « الاعتصام » (وتصدرها فرقة أخرى منهم) ومجلة « البعكوكة الجديدة » ، وبين اغاني كتكوت الامير وأفلام فريد شوقي ، وبين موسيقى « النيوجيتس » ــ وهذا اسم فرقة موسيقى مصرية تنافس محمد نوح ــ ورقص نجوى فؤاد وتابعاتها ، وبين مسرح بهجت عمر وتمثيل سعيد صالح . ان مجرد « اتساع عقلَ » الفن الريفي او الحضري بالتعليم ، لا يعادل تأثيره ما يؤدي اليه هذا النمط ذاته من التعليم من تأثير اجتماعي ، وهو تحول هذا الفتى البسيط ، المتعلم ، الى بورجوازي صغير من النوع المصري ، زاده « العقلي والروحي » الاساسي يأتيه من تلك المنابر ــ ونوعها ــ بالذات ، ولا يطمح ولا يشعر بالاحتياج الى زاد عقلي أو روحي من نوع آخر ، لانه يعيش المستوى الاجتماعي ، ونوع الحياة والعمل ، ويمارس العلاقاتالاجتماعية (السياسية / الاقتصادية / الاسرية) ويتبنى منظورا فكريا ويخضع لنسق من القيم

الاخلاقية والجمالية ولمفهوم اقتصادي سوقي ، ولدعاية مركزة . ويعيش تمزقا بين لغة التفكير ولغة الكلام . وبين الشعارات ومعانيها وبين تجسداتها في الواقع . تجعله كلها عاجزا عن استهلاك أو عن انتاج أي نوع من الثقافة الا تلك الانواع ، استهلاكا وانتاجا نمطيا وسائدا ورائجا . بالطبع مع استثناءات لها منطقها الخاص .

انها من جديد مشكلة انحطاط ثقافة الطبقة المتوسطة المصرية ، نتيجة طبيعية لانحطاطها العام بفعل عوامل تاريخية يمكن دراستها ومعرفتها . وليست القرارات الادارية ، الا تعبيرا بسيطا عن ذبذبات الخط المتعرج ؛ لمسيرة ذلك الانحطاط .

ولا ينبغي أن يخدعنا ، مثلا ، اقبال خمسين الفا ، او مائة ألف شخص ، على شراء الكتب من « معرض القاهرة الدولي السنوي للكتاب » فنتوهم ان للكتاب سوقا رائجة في مصر ، ذلك لان القاهرة والاسكندرية (أكبر مدن القطر وحيث تقام السوق على مدى شهر واحد كل عام) تضمان قرابة عشرة ملايين من السكان (ربع سكان القطر تقريبا) بينهم ما لا يقل عن النصف من هؤلاء المتعلمين البورجوازيين (هم في الحقيقة أيضا نحو نصف كل المتعلمين البورجوازيين فيمصر) القادرين (قدرة اقتصادية) على شراء بعض الكتب كل عام . فاذا تبينا ان واحدا فقط من بين كل خمسين من هؤلاء « المتعلمين » هو الذي يذهب الى سوق الكتاب ، وأدخلنا فيالحساب ان أكثر من نصف هذا الواحد فيالخمسين، يذهبون لشراء كتب تتعلق بأعمالهم أو دراساتهم أو تخصصاتهم مباشرة (أي لشراء كتب لا تدخل في باب الرغبة في المعرفة العامة والحصول على ثقافة شاملة خارجة عن دائرة المعرفة التخصصية ، وان كانت ضرورية لها حتى تكون المعرفة التخصصية انسانية لا حرفية ، وجدانية لا مجرد استثمار يدر مباشرة ربحه المحسوب) ، اذا فكرنا في كل ذلك لتبينا مقدار « ضخامة » سوق الكتاب في مصر ...

وتستطيع بالطريقة نفسها أن تتبين درجة اقبال « الجمهور » نفسه على المسرح « الجاد » أو على السينما الجادة ، أي على أي فن أو انتاج ثقافي له علاقة بنقد الحياة ومحاولة فهمها ، أو له علاقة — حتى — بالافكار والمعاناة الانسانية ، مطروح أو مؤلف في تعبير وصياغة فنيين وجماليين راقيين .

وتستطيع أن تستخدم مقاييس جزئية اخرى كثيرة لكي تتبين درجة تأثير وجود « وزارة للثقافة » منذ نحو عشرين عاما ، على عقلية هذه الطبقة التى كانت جهود هذه الوزارة موجهة اليها اساسا .

تستطيع مثلا أن تستخدم مقياسا : نوع اللغة السائدة على السنة غالبية التكلمين والمحدثين في اذاعة وتليفيزيون القاهرة ، ودرجة القدرة على التعبير عن أية فكرة أو واقعة خارجة قليلا ، أو أكثر تعقيدا قليلا عن دائرة أفكار ووقائع الحياة اليومية العادية ، سواء كان المتكلمون من العاملين « المحترفين » في هذين الجهازين (وحتى في اداراتهما واقسامهما) ذات العلاقة المباشرة بالثقافة — أيْ بالمعرفة الشمولية القادرة على استيعاب جزئيات وجوانب الحياة وتقديم تفسير متكامل لها — أو كان المتكلمون من « الضيوف » الذين يستضافون لانهم أصحاب « خبرة » في مجالهم ، يؤخذ رأيهم فيما يراد اثارته من مشكلات أو قضايا . سوف تدهشك قلة عدد المفردات التي يستخدمها هذا المتخصص ، بقدر ما ستدهشك حدود قدرته على صياغة « العلاقات » بين مفرداته القليلة ، ولكن دهشتك ستزداد حتما حينما تصل المسألة الى تقييم تصوراته عن علاقة تخصصه بأي مجال آخر من مجالات المعرفة ، وحتى بأشد هذه المجالات قربا من مجال تخصصه (وفي تصور مثل هذه العلاقة ، تبدأ الدرجة الاولى من درجات « وعي » الانسان ، وتحوله من متعلم ، متخصص فقط ، الى متخصص « مثقف » يملك تصورا شاملا عن العالم تتماسك فيه ظواهره وميادين تجلياته) .

انني لا أتحدث عن مجرد مأساة « المتخصص » في عالم الاحتراف الفرعي الذي يفرض البناء الاقتصادي الانتاجي للرأسمالية ، وانما أتحدث عن نوع خاص من المأساة نفسها . ينعزل فيه المتخصص عن ثقافة أمته ثم عن ثقافة العصر « الخاص » بهذه الامة ، مع انعزاله عن الثقافة الانسانية العامة ، لكي يصبح اغترابه ثلاثي المراحل ، بدلا من الاغتراب ذي المرحلة الواحدة الذي يعيشه المتخصص الغربي العادي .

وتستطيع أيضا أن تستخدم مقياسا ثانيا : نوع الاغاني السائدة أكثر من غيرها (وللاغنية الشائعة أهميتها : انها نوع من الشعر السهل المتزج بالموسيقى البسيطة والاداء الايقاعي .. هكذا يفترض . فيفترض أيضا انها تعبير — رغم فنيته — أشد ما يكون تلقائية وقربا من روح الامة وتعبيرا عن ثقافتها) فهي اعراب مباشر عن مستوى اللغة ، وعن نوع الخيال وأنواع التطورات ، وعن مستوى الحساسية ومصادر التأثر ومنابع الانفعال العاطفي والتطور الوجداني ومستواه والذوق الجمالي ورهافته .. لدى من يبدعونها ومن يرددونها معه أو بعده . وسوف تدهشك الاغاني المنتشرة أكثر من غيرها بين « المتخصصين » أو « التكنوقراط » — بالتعليم أو بالخبرة ، وأعني فئة تضم أطباء ومهندسين ومحامين ومديرين ، وحرفيين من مهن كثيرة أصبحت تصعد بسرعة درجات السلم الاقتصادي ، سباكين وعمال صيانة وأصحاب ورش صغيرة أو كبيرة .. الخ.

ستدهشك هذه الاغاني حينما تتأمل مفردات

وعبارات أغاني أشهر مطربي مصر في السبعينات . أحمد عدوية (وله الآن أشباه كثيرون . أشهرهم كتكوت الامير – وكلاهما ممنوع من الاذاعة . ولكن السينما وأشرطة التسجيل « الكاسيت » تضمن لهما ذيوعا وثراء قاعدته في علب الليل وقوامه في شركات انتاج الافلام وأشرطة التسجيل . وبالمناسبة ، فان مؤلف أغاني احمد عدوية ، يدعى المعلم سيد بيرة !) . أقول ان مفردات وعبارات هذه الاغاني ستدهشك ، أو قد تصدمك . قبل أن تدهش ، حينما تحاول اكتشاف معانيها . وبعد ذلك يحق لك أن تتعجب من مدى – وسرعة – انتشار أشياء لم تكن لتخطر على بال من انتقدوا أغاني « انحطاط الستينات » الذي كان قد بدأ يتمدد كالوباء منذ هزيمة ١٩٦٧ .

لقد حدث مرة أن أعجبتني (شخصيا) كلمات الشاعر الرومانسي العظيم الكسندر بلوك . في تحليله لسيكولوجية الروس عقب هزيمتهم عام ١٩٠٥ ، حينما قال ان البورجوازية الروسية المهزومة ، التي رات مثلها العليا تمرغ في الوحل قد ركبها شيطان الضحك والسخرية ، فراحت تغسل بوحول أكثر قذارة ما كان قد تبقى في روحها من ايمان باي نوع من القيم . وكنت اظن أن بلوك كان يتحدث وليس في ذهنه سوى الهزيمة العسكرية (القومية) التي لقيتها جيوش روسيا القيصرية أمام اليابان . ولكنني مع نظرة متأنية أخرى في دراسة بلوك ، تبينت انه كان يتحدث عقب هزيمة الثورة الديمقراطية في السنة نفسها (١٩٠٥) . ان انهزام هذه الطبقة في معركة الليبرالية ، أو سقوط الليبرالية العاجز بسبب وهن تمسك الطبقة نفسها بالحرية ، هو الذي يجهز على روحها ، بعد أن يكون سقوط أحلامها القومية (من وجهة نظرها) قد أثخن تلك الروح بالجراح وان لم يقتلها . ومثل هذه الطبقة (ذات الطموح الى التوسع لا يتوازى مع قدراتها ، والضعيفة اقتصاديا وسياسيا رغم طموحها الى التوسع ، ووارثة ميراث اجتماعي وثقافي بالغ التقعد والتشوه لم تواصل محاولاتها الباكرة لعلمنته وفهمه) تعجز أصلا عن افراز « ليبرالية » حقيقية أصيلة ، وتعجز بالتالي عن التمسك بالقيم الليبرالية (المفروض « نظريا » انها قيمها هي) بقدر ما تعجز عن غرس هذه القيم في عربة مجتمعها . انها لا تعجز عن تغيير واقعها بالصدفة ، وانما هي تعجز عن ذلك لانها ولدت في الاصل عاجزة ، ورفضت – لعجزها لا لمكرها – أن تنسلخ عن عالم الاستبداد والقهر والخرافة القديم . ولقد رأيناها وهي تحاول اقناع ركائز ذلك العالم المعاصرة بأنها الحليفة المخلصة لها ، ثم بأنها « ابنتها » الشرعية وسلاحها القادر ، فلما رأت ان تلك الركائز المتعالية لا تريد منها الا أن تكون خادمة وعاهرة (بمثل ما نظرت أرستقراطية روما مالكة العبيد التجارية الى بورجوازيه اليونان المتعلمة . او بمثل ما نظرت الارستقراطية الاموية والعباسية الى من ورثتهم من متعلمي الموالي . وخصوصا فارس القديمة) لما رأت ذلك . حاولت جاهدة أن تتمرد . وان تتحول بنفسها الى ركيزة مستقلة للاستبداد والقهر والخرافة .

انها جاهزة لاقامة استبداد الضعفاء . ولا تمر بالمراحل الزاهرة القوة التي عاشتها البورجوازيات الاوروبية التي أنتجت (في مراحل طمأنينتها) ثقافات الغرب البورجوازية العظيمة ، سواء كانت عظيمة الرجعية او عظيمة التحرر . وانما تصل مباشرة الى ضرورة الاستبداد كما وصلت البورجوازيات الاوروبية الى تلك الضرورة في العشرينات والثلاثينات ، وكما توشك أن نصل في عقدنا الحالي او في الثمانينات .

وبورجوازيتنا جاهزة لاقامة استبداد الضعفاء أيضا لانها احتفظت بأدوات الاستبداد الموروثة من العصور السابقة (وانا أتحدث هنا عن الادوات «الثقافية» وحدها للاستبداد) . احتفظت بالامية، وبالنزعة الحرفية للمتعلمين . وبالقيم الاجتماعية الاخلاقية المركبة ، الموروثة من مجتمعات البدو ومجتمعات رعاة اواسط آسيا في القرون الوسطى الاسلامية . ومجتمعات صغار الفلاحين المقهورين عبر الوف عدة من السنين ... بل انها بالغت في الحفاظ على هذه الادوات ، الى درجة انها « دافعت » عنها في الحقيقة حتى وهي تستخدم ضدها، لكي تثبت لخصومها القدماء انها لا ترفض كهنوتهم كما رفضت البورجوازيات الاوروبية طوال قرني التنوير كهنوت أسلافها الى أن ذبحتهم في ثوراتها الكبرى وقبل أن تجدد لنفسها الكهنوت المناسب لعصرها ولاغراضها الخاصة . لقد جاهدت « ليبراليتنا » لكي تثبت لـ « خصومها » القدماء انها خرجت من تحت معاطفهم بالذات : تأملوا البنيان الفكري الكامل لواضعي الاسس الاولى لليبرالية المصرية ، قاسم أمين أو لطفي السيد أو الامام محمد عبده على سبيل المثال ، لكي تكتشف تناقضات كثيرة من نوع التناقض بين الدعوة لتعليم المرأة وبين رفض حقوقها السياسية وحقها في العمل ورفض مساواتها الاقتصادية والشرعية بالرجل ، والتناقض بين شعار الوطنية ، و « القومية المصرية » ، وبين تصور ان الجذور الثقافية والحضارية لهذه القومية انما تكمن عبر البحر الابيض المتوسط في نفس أرض الثقافة الغربية ، أو التناقض بين التفسير العقلي لأسس الاسلام في الفقه والشريعة والالهيات والايمان بأهمية « التعليم » لتطور الامة السياسي ، وبين رفض نتائج العلوم البحتة اذا اقتربت من وضع مفهوم طبيعي شامل للكون ورفض التعليم للعامة (محور الامية) على أساس انه : لا تلقنوا أبناء السفلة العلم !

ان هذا التراث الثقافي (أو الايديولوجي في الحقيقة) المتناقض لطبقتنا المتوسطة ، هو الذي أنتج التناقض الذي نراه الآن ، وأبصرنا جذوره منذ سنوات طويلة : انشاء كونسيرفاتوار ومعهد للباليه (للتخصص في تدريس واشاعة أنواع من الموسيقى الغربية) مع عجز عن تطوير مركز للدراسات العلمية في تراث آدابنا وفنوننا الشعبية ؛ وانشاء « أكاديمية للفنون » وسلسلة من « الجامعات » الاقليمية محدودة القيمة العلمية ولا تجد ملاكات كاملة « محترمة » من الاساتذة والادوات الدراسية الجامعية الحقيقية ، مع تعويق مستمر لأية خطة فعلية لمحو الامية ، بانشاء أكبر محطة اذاعة في العالم (أو ثاني أكبر محطة على ما أذكر) لا تكاد تجد فيها عشرة اشخاص يحسنون نطق لغة أمتهم ، انشاء واحد من أحدث « مراصد » العالم الفلكية يشغله « متخصصون » يتابعون أحدث منجزات علمهم في العالم، وينتظرون شهادة رؤية الهلال بعيون جماعة تكاد أمراض الرمد المختلفة أن تكون « تراثا » موقوفا عليهم ، وضع برنامج كبير (يقع في نحو الف صفحة) لتطوير عمل وزارة الثقافة ، لكي نصل في خلال اقل من خمس سنوات الى الغاء وزارة الثقافة من أصلها .

* * *

هكذا تكتمل تلك الدراما ، بتقابلّ عنصر من المأساة والملهاة . ففي مثل هذا النوع من « التاريخ » لا تتجلى معاني المبكي من المحزن ، الا في ضوء الضحك الذي يمهد للوعي البهيج ، وان كان خاليا من اي انبساط !

القاهرة



أربع برقيات

د . محمد ديب

(١)

خرج البارحة اخي ، ولم يعد .
لم نتعرف عليه في زحمة الوجوه المتننة ،
وبقع الدم الناتئة في العيون .

(٢)

بيتنا المتهدم ـ كثيرا ما جمعنا وسائر العرب بيتنا المتهدم ـ
انهار على من فيه . اختلط الدم بالطين .
وحدة ناطقة لا يسمعها موتى ولا أحياء .

(٣)

لا تزال المومسات تترهل في بيروت . بيروت نفسها تترهل .
سماسرة الشرق والغرب يمضغون الملال على مدى الاسبوع ،
ويهوذا يرقص بين المئذنة والصليب في عطلة يوم السبت .

(٤)

السلام عندنا خبز القطعان المخدورة. تزينه المؤسسات برسوم من القرآن . والشيوخ والقساوسة ـ كعهدهم ـ يلهجون
في بيوت الله بالابقار المقدسة .
ما حديث السلام في صحف الغرب ؟
أكتب اليّ عن السلام . السلام عليك .

د. محمد ديب
استاذ الادب الانكليزي والمقارن
بجامعة البرتا ـ كندا

الكراسة البابلية

يسري خميس

١ ـ كان عليه ان يفرّ
من قبل أن ينشره السلطان بالمنشار
لأنه اقترح :
أن توضع الاشياء في موضعها
فضلّ بطن الارض عن ظهرها
وصار في نهاية السرداب
غزالة واسعة العينين
عند باب السهروردي المقتول .

٢ ـ أين مظفر ؟
هذا البطل الاخضر
الطالع من جمار النخل الى الرب
الهائم في بلدان الرمل على وجه القمر المتقلب
أرض ترفعه أرض تضعه
المتلفع حزنه
الصارخ في البرية : الحق أنا
والحق هنالك كالحق هنا .

٣ ـ أخبرني :
بأنه قابله في جزر اليونان
يحتسي الخمر ، ويبكي ـ يلعن السلطان
ويغنّي ....

٤ ـ قابلته هناك عند أم قاسم
التي قد ارسلت لي ليلة السفر :
الخبز ، من قمح الجنوب . صنع يدها
واللبن الرائب
والفواكه التي انضجها البستان قبل الموسم .

٥ ـ قابلته هناك في مجزرة المدينة
وكان طيّب الوجه ـ كما عرفته
جميعهم هناك طيّبو الوجوه
يعملون في ايقاع هادىء مغلف بالصمت والدخان
مباركون بالدم الساخن والمياه الجارية
ولحم البقر الذي ما زال ينتفض ...

٦ ـ قابلته هناك في بيروت
من قبل أن تصير الارض ، مجزرة
للاخوة الاعداء
من قبل أن تصير الارض ، متجرة
للاخوة العملاء
من قبل أن تصير الارض ، مقبرة
للاخوة الفقراء

٧ ــ رايته يشقّ نهر دجله
يملأه بالماء من منبعه الى مصبه
يعطيه اتجاهه الصحيح
يحفر للفرات جسد الارض
يضاجع النهر
ويشتل العشب على الوديان
والقمح والنعنع والزيتون
ويطلق الماشية الطيّبة العيون ...

٨ ــ رايته هناك يملأ الاهوار بالمياه الساكنة
والسمك الصادق والخضّير
والبوص والاحراش
ويصنع القوارب التي يحتاجها الفقراء .

٩ ــ ثم دعا الرب ليسقط المطر
. . . .
وسقط المطر
المطر المانح للحياة
المطر الذكر .

١٠ ــ وبعدها استراح
في البحر
اختفى ....

١١ ــ لم يرتفع دجلة هذا العام
فليس فيه ماء طيّب
وليس فيه خير
ماء يخاف من شطئانه
يهرب للمصبّ ، ناظرا للخلف
توشي مياهه بنفسها !

١٢ ــ كانت مجاعة مروعة
يأكل فيها الناس كل شيء
الامعاء والاظلاف والكلاب
كان ضبابا
مثلَ ذلك الذي يغلف المجازر
وابتدأ البشر
يأكل كل منهم لحم أخيه حيّا
أو ميتّا .

١٣ ــ وهؤلاء
لا يسمعون غير صوتهم
ولا يرون غير لون واحد لخضرة الشجر
يفتقدون القدرة الفطرية السليمة
لأن ترى تعدد الالوان
ويلعبون بالصلصال مخمورين
يصنعون جيلا مرعبا من الاطفال
صاروا رجالا فجاة في العاشرة !!

١٤ ــ والسيد صافي العينين
المسؤول عن الحاضر والمستقبل
الراعي الحامي المقتدر الجبار المتكبر
يغتصب المرأة في القارب بالليل
لا يسمع صوت نشيج المرأة
يسمعه النهر ، وتشهد ضده
كل الاسماك وأعشاب الماء .
بعد شهور تسعه
ولدت تلك المرأة ، قمرا
يكتشف كل فضائحهم .

١٥ ــ تكاثروا
وانتشروا في الارض
يسرقون غرس اجيال من البشر
يقتسمونه هناك بينهم
ويأكلونه
اللعنة !
اللعنة التي ليست مقدسة
لآكلي نبات الآلهة ، وثمر البشر .

١٦ ــ منفصلون عن تاريخهم
لا يلمسون غير قشرته
ولم يذوقوا لسعة الحمض وطعم الثمرة
وان حاضر البطانة
ممتلىء بالاكل والرصانة
لذا : ليس لهم مستقبل
سوى الضياع في الرمال
والانقراض كالماموث
في الصحارى الواسعة .
يؤجلون بالسلاح ، موعد الانقراض !
يا خيبة النفط ، وسوء الطالع .

١٧ ــ يا أيها النهر الذي خلقتنا
أطلق النواح
يا سمك المستنقع الساكن
أطلق النواح
يا أيها السهل الحبيب
أطلق النواح
ويا حقول القمح والزيتون
أطلقي النواح
ويا ملايين المعيز السود
أطلقي النواح
يا أمي الطيبة العجوز
أطلقي النواح
يا امراة لا تملك الرغيف
أطلقي النواح
ويا فتاه ذبحت . لأنها أحبّت
أطلقي النواح
ويا عشائرا تسحق بين فكي الحزبين
أطلقي النواح
يا غيم يا امطار يا سحاب يا سماء
يا زرقة تلفتنا ، يا شجرا يشهد
يا رياح .... أطلقوا النواح .

١٨ ــ الراعي الطيب في يده المزمار
وقلب ممتلىء بالدمع
يغني حقل القمح قطيع من اغنام خضر
يغنّي شجر اللوز وشجر الاجاص
يغنّي الشاي الحلو
يغنّي المراة والطفل
يغنّي الحرية ...

١٩ ــ رأينه مهرولا وغاضبا وهادرا كالبحر
تسقط من أقدامه القارات
يجري الى الجنوب
يوقظ الرياح
في يديه السيف .
فاجأهم يقتسمون الماء
في حرم الحسين
« سوقا يصير بيت الله
جعلتموه أيها الكلاب
مغارة اللصوص
في الارض والسماء ملعونون
يا بني الحيّات والافاعي » .
وقلّبَ الموائد الخضراء
والاسهم والسندات
والفضة والذهب ــ فوق رؤوسهم
« ما جئت ألقي عليكم سلاما
بل السيف يفصل ... »

٢٠ ــ لملم ما تبقى من مياه :
الماء الضائع في الصحراء
الماء الخائف تحت جسور النهر
الماء الساكن في جسد المستنقع
الماء الراقد في أعماق القلب
الماء الرائق في قاع الاعين
الماء الصامت والماء المقهور
الماء الغاضب
الماء الصاعد في اغصان الشجر المثقل
الماء النازل في الجذر المبتل
الماء الكامن في طبقات الجسد الارض
قذف به في النهر .

٢١ ــ وطاردوه
اطلقوا الحراس والكلاب خلفه
تبحث عنه في صحارى العرب الواسعة الجلباب
فتشوا خطوط النفط والنخيل
فتشوا المقاهي
وفتشوا سنابل الشعير والبيوت
فتشوا ملابس الاطفال
لا أثر
سوى الاغاني السرية
التي تهدر في بيوت الفقراء كالفيضان .

٢٢ ــ كان هناك في مقام السهروردي
يصلّي
يدعو ربه أن ينقذه !
حوّله غزالة جميلة واسعة العينين
مرت امامهم جميعهم
ودخلت في جذع نخلة هناك
عند شط العرب الفسيح .. اختفت
في الخضرة المتربة الكثيفة
وفي سباط البلح الثقيل ، قبل النضج .

جزيرة في بحر الشمال / القاهرة ١٩٧٨

قصة قصيرة

الآن صارت ملكي



حان موعد اذاعة النشرة الاخبارية . أدارت التلفزيون .

كان بقية برنامج لا تدري ما أوله ، ولكن الصورة لم تشدّها الى الشاشة . المهم أن تستمع الى الاخبار . لعل جديد آت . فمنذ متى وهي تنتظر هذا الجديد ؟ طوال سنوات حرب لبنان وهي تنتظر . الى متى سيطول الانتظار ؟ وما هو الجديد ؟

ظهرت على الشاشة صورة ساعة تدور عقاربها ، ومع الدورة لحن يغني اعلانا لنوع من السكاير .

بدت صورة شاب وشابة ضاحكين يركبان سيارة يناديان المشاهدين لتدخين ذلك النوع من السكاير .

مدّت يدها الى الطاولة واشعلت سيكارة .

كان الشابان في غاية السعادة . شعر الفتاة يطيّره الهواء لينساب على كتفيها ويغطي قسما من وجه الفتى .

هل في الدنيا سعداء أو غير سعداء ينطلقون في الشوارع بصورة طبيعية لا يخافون قذائف ولا متفجرات ولا صواريخ أو قنّاصا ؟

وهذان اللذان يبدوان محبين ، أهي عاطفة حقيقية تربط بينهما أم انهما اجادا تمثيل دوريهما . هل بقيت هناك محبة ؟ تستعجل عقارب الساعة على اكمال دورتها، ما الذي ستحمله أخبار الليلة ؟

خوفا جديدا ؟ تطمينا جديدا ؟ تخديرا جديدا ؟ اكاذيب جديدة ؟

على الشاشة كلمة الاخبار مع موسيقاها المعهودة التي اقترنت بكل الاحداث المفجعة . أتراها ستحمل الليلة أخبارا أفضل ؟

بدت صورة المذيع ببسمته الوديعة المؤدبة فتفاءلت. ليته يحمل أخبارا مطمئنة .

بدأ بأخبار لبنان فتحدث، وهو لا يزال يحاول رسم البسمة المطمئنة ، عن بعض حوادث اخلال بالامن حدثت هنا وهناك ، في مناطق متفرقة شملت معظم أنحاء لبنان . متفجرات وهجوم بالدبابات وقنص وردّ على الحوادث .

حدث كل هذا في هذا اليوم ؟ كم عزيزا غاب ؟ كم غاليا فقد ؟ كم بيتا شرّد أصحابه ؟ لم تكن قد سمعت أصوات كل هذا الذي حدث اليوم وظنته نهارا هادئا او هكذا خيل اليها . ولكن الآخرين ؟ الآخرون المنكوبون ما احساسهم الآن ؟

سحبت الوسادة من خلفها وانزلت قدميها . خجلت أن تجلس جلسة مريحة في بيتها وهناك .. هناك من لم يعد لهم بيت ولا يعرفون مصيرهم أو مصير أحبائهم .

على الشاشة صورة لفيضانات ساحقة تغمر البيوت بالمياه ، والناس يركبون زوارق هاربين من بيوتهم الغارقة بالسيول .

هناك يهربون من غضب الطبيعة ، وفي لبنان يتركون بيوتهم هربا من القتال .

ما أتعس أن يكون الخلاص بامكانية الهرب من البيت !

طفل يبكي نسيه أهله في زحمة الهرب . كيف استطاع المصور أن يلتقط صورة هذا الطفل دون أن يحاول انقاذه ؟

فضّل مهنته على تخليص هذا الصغير العاجز من الغرق .

تبقى الطبيعة أقل قسوة من البشر .

يظهر انها شردت عن تتبع الاخبار لان الصورة التالية كانت لمتظاهرين . لا تدري أين . تلاحقهم الشرطة

بسلاحها ، وهم يقتلعون حجـارة الجدران والرصيف ليردوا على الشرطة .

يقتلعون الحجـارة . هنا .. هنا لا حاجة لهذا الجهد . الكل مسلح . ســلاح الجيوش يملكه أفراد والشرطة هي التي تخاف المتظاهرين .

كل المتظاهرين شبـان في سن الفوران والمغامرة لا يهمهم الرصاص ولا القتال . هذا هو العمر الحقيقي للبـدء .

كل رجال الثورات بدأوا هكذا متظاهرين يطاردهم القانون ، وواحد منهم صار يحكم البلد . خيط رفيـع جدا كان الحد الفاصل بين موته بتهمة الخيانة أو صعوده الى كرسي الرئاسة .

كيف يعامل الظـافر المتظاهرين الآن ضـده بعد توليه الحكم ؟ هل يتذكر أول عهده برفض الحكم السابق ؟ هل انساه الكرسي العدل الذي كان يطالب به ؟

وهذا الحبل الفليظ ، هل سيشنق به أحد ؟

يقول المذيع الآخر بوجـه صارم عبوس : عثرت السلطات على جثه المخطوف بعد أن دفعت أسرته ثمن الفديـة لان الاسرة أخبرت الشرطة عـن مكان اللقاء لطالبي الفدية .

كيف أحسّ المخطوف ؟ هل كـان يتوقع النجاة ؟ اتراهم عذبوه كثيرا قبلَ القتل ؟ ماذا تقول أسرته وقد فقدته مع انها دفعت الثمن المطلوب لبقائه حيا ؟

المخطوف عاد ؟ المخطوف يعود ؟ وفي لبنان صارت قاعدة الا يعود المخطوفون . فكلمـة اختطاف مرادفة للموت . الامل مات .. الانتظار مات .. كم تمنى أهـل المخطوف لو طلبت منهم فدية ؟ لو دفعوا أرواحهم فداء من يحبون ؟

ماذا تفعل أسرة المخطوف ؟ ماذا تفعـل زوجته ؟ أولاده ؟ هل ينتحرون حزنا هنا ؟ ندما هنـاك ؟ أم ان الحياة بجبروتها هي دائما أقوى من الموت ؟

خارطة افريقيا على الشاشة ، مشاكل جديدة في أحد أقسام القارة . هؤلاء الزنوج الذين لا زلنا نسميهم عبيدا ، كأنما العبودية هي جنسيتهم الحقيقية ، كيف انفجروا بهذه القوة ؟

هذه القارة السوداء صارت محطّ اهتمام الدول الكبرى . الكل يحاولون جـذب قسم اليه . الصراع الدولي على أشدّه هنا ، وبالامس كانوا يباعون ويشترون كالسلع . أتراهم تحرروا حقيقة ؟

وهنا ، في لبنان ، الناس ليسوا زنـوجا ولكنهم عبيد ... عبيد فاشستية الحرية .

على الشاشة صور أيد تحسب أوراقـا مالية . قيمة بعض العملات على هذه الارض تهبط على حساب صعود غيرها . وبورصـة الامم تتلاعب بتكتيك يعمـل لحسابها .

أسعار العملات العالمية ما علاقته بلبنان ؟ أهو الذي يتلاعب بمصيره ؟ أم ان هذه الاوراق هي قدره ؟

وصاحب الاصابع ، هـل يفرح بما بين يديه ؟ أم انه مجرد آلة حاسبة تحسب الاوراق لفرزهـا لغيره وغيره لغيره ، وتندلع النيران مشعلة ليس أوراق النقد.

يبتسم المذيع قائلا انه يترك وقتا للاعلان .

اعلان عن خطوط نقل جوية .. والمسافرون مـن لبنان . لماذا يهربون ؟ تمتعا برحلة ، للاقاة أحبة ؟ هل سيجدون بديلا لبلدهم ؟

ما أتعسهم أن يضطروا الى الهرب من الوطن ! ما...

المضيفة الانيقة تساعد احدى الراكبات على حمل طفلها . الى اين تسافر السيدة ؟ ولم هي وحدها ؟ وهذا الطفـل اهو مهاجر أم عائد ؟ والمضيفة كم من اطفـال للآخرين تحمل ؟ وكم تقدم من صواني طعام ؟ وكم تحاول اراحة المسـافرين ؟ وحين تنتهي السفرة ويذهب كل في طريق تعـود تلاقي آخرين . ما هي مشاكل المضيفة ؟ وما هي مشـاكل المسـافرين ؟

اتراهم يستعجلون انهـاء الرحلة ام انهم يتمنون لو انها لا تنتهي ؟

لو انهم لا يصلون ؟ هل هناك من يتمنى أن يحدث للطائرة حادث فتكون هذه وسيلة مجبرة عـلى الانتحار الذي يبحثون عنه ؟

ليتها تغمض عينيها ولا تحـدق في الشاشة . كفاها اختناقا في هموم لبنان .

الخبر الآخر صورة جماهير غفيرة تحمـل تمثالا بحجم عمارة مصنوع على صـورة كاريكاتورية . يصرخ الجمهور ويهتف بلغة لا تفهمها ، ويسحبون التمثـال صابين عليه تنكات مـن النفط . يولعـونه بالنار . صاحب هذا التمثال الذي كان ولا شك رمزا قائما في أحد الميادين . كيف تحولت عواطف الجماهير عنه الـى حد تشويهه الى تمثال مسخ يحرق ؟

هل يستحق هذه النهاية ؟ هل كان يستحق أمجاده السابقـة ؟

وفي لبنان كم تمثالا بقي ؟

دمروا ! خربوا ! قتلوا ! نكلوا ! شوهوا ! شرّدوا ! عذبوا ! أحرقوا ! و ... خلقوا أصناما جديدة .

عارضات الازياء اللواتي ظهرن على الشاشة يرتدين آخر صرعات الازيـاء . الكاميرا تـدور بين متفرجين ومتفرجات . ما الفصل الآن ؟ ما لهم يعرضـون أزيـاء الصيف ؟ السنا في فصل الشتـاء ؟ يقولون ان هذا ما أعدّ للصيف القادم !

الصيف القـادم ! يضمنون ان يعيشوا الى ذاك الفصل ؟ يضمنون يوما قادما ! ساعة قادمة ! نسيت .. نسيت انهم ليسوا في لبنان .

هؤلاء المتفرجون والمتفرجات لديهم الوقت الكافي

والمال الفائض لتضييعه على التفرج على الازياء الجديدة. وفي لبنان آلاف من المشردين والجائعين ؟

والعارضة ما نصيبها من كل هذا ؟ تحاول اظهار جمال الفستان بكل مفاتنها الطبيعية والاصطناعية . أهذا هو كل دورها في الحياة ؟ ارتداء ثياب لترتديها الاخريات . توفر عليهن وقت تجربة الفستان . والرجال ... الرجال لماذا جاءوا ؟ ليشتروا للنساء ؟ كانوا يشترون النساء في الماضي ، في زمن الرقيق ، مباشرة ، فصاروا يشترون لهن الثياب بعد أن تطور أسلوب البيع . كله واحد . الرجال يدفعون والنساء سيستلمن .

القسم الاخير من الاخبار مخصص لعالم الرياضة. فرقة فازت واخرى خسرت . تقدم الخاسرون والرابحون يتصافحون . هذه تقاليد الروح الرياضية . هل يمكن أن تنتهي أحداث لبنان بهذه القبل وهذا العناق وهذه المصافحة ؟ وهل كانت مباراة لتنتهي هكذا ؟

المذيعة ترتدي اليوم فستانا جديدا لكن لا يناسبها. أما تسريحة شعرها المستعار فجعلتها تبدو أفضل شكلا .

لا تستطيع المذيعة تغيير ما حولها ، لا تستطيع المذيعة تغيير مادة الاخبار. فلم تحسن غير تغيير منظرها الخارجي .. تغيير خارجي .. تغيير خارجي .. متى نصبح قادرين على تطوير الاعماق وتغييرها ؟.. متى ؟.. متى ؟.. متى ؟..

البرنامج الذي سيتلو الاخبار فيلم تتذكر انها شاهدته منذ سنوات فترة قبل ابتداء الحرب في لبنان. تذكر نهايته تماما حين تموت البطلة ويحملها حبيبها غير آبه لوجود زوجها ويأخذها الى الشرفة مطلا على الاماكن التي كان فيها الحبيبان السابقان يلتقيان وينتهي الفيلم. والبطل يقول بصوت واهن حزين : ـ صارت الآن ملكي .

وتذكر يومها كم بكت ، كم ذرفت دموعا ...

كانت ترعى مادة الافلام شركة سكاير أخرى .

تذكرت هي سيكارتها . كان بين أصابعها فلتر مطفأ . السيكارة احترقت ورمادها يتناثر على يدها وعلى فستانها .. والكرسي .. والارض .. وكل ما حواليها .

مدت أصابعها تتحسس خديها : لم يكن عليهما دموع ولا آثار دموع ، ولكنها أحست ذرات الرماد بين اهدابها وشفاهها تحسست طعم الرماد .

بيروت

الحمامة

ياسين طه حافظ

الحمامة عاشقة قصدت كوكبا
فأضاءت الى ضوئه دربها .
لم تعد لترى موطنا هجرت
أو ترى حبّها .

●

الحمامة بنت السماوات تاهت
فهذي عوالم لا تستسيغ خشونتها ،
وجفاف الوجوه بها ،
وبشاعة أصواتها ،
وارتجاف الشجر .

●

الحمامة ظلّت تحوّم حتى سرى في الجناح
الخدر :
فلتت خفقة ،
وانطفت خفقة ،
وارتمى جانح ،
ورمت حفنة من شرر
واستدارت وقد أرعبت بين صوتي حياة وموت ،
وعادت بغصّتها ،
وارتضت موطنًا من حجر .

●

الحمامة مهمومة الجنح تمشي
تتنقل في بقع من تراب وقش
وتبحث عن حبة النور ـ
هذا تراب عتيق .
فأين ستلقى الحمامة حبّاتها اللامعات ،
وأنّى ستلقى بهذا الضجيج الغريب نظافة عشّ ؟

●

الحمامة كانت الهة حبّ تنقّل بين
حقول السماء
وها هي فوق التراب :
فلقد حكمت بالهبوط
والتقاط البذور التي سوّدتها الطحالب ،
ولقد حكمت أن تقضّي الحياة حنينا
وتقطر حزنا على ورقات الشجر .

●

الحمامة مخنوقة الصوت تبكي
وتذرف ساعة يغفو الجميع
أدمعا من حجر ...

بغداد

عن المنهج "المثالي" في "الثابت والمتحول"..

رفعت سلام

(١)

المدخل الصحيح لرؤية أدونيس في الثقافة العربية، يبدأ من المنهج . ذلك ان مناقشة التفاصيل واغفال المنهج ، أو سابقة عليه ، ستصبح عملية عقيمة تماما وغير مجدية .

« انني لا اقصد ان ادرس نشوء الثقافة العربية وعواملها ، وآلية العلاقة بينها وبين القاعدة المادية ، وانما قصدت ان أدرس الثقافة كظاهرة قائمة بذاتها » (١) . ويصبح هذا الفصل بين الثقافة والقاعدة المادية هو منطلق النظر الى البنية الثقافية العربية . بدءا من صدر الاسلام وانتهاء بالتصور المستقبلي للمجتمع العربي .. لدى أدونيس . ويصبح هذا الفصل هو أساس المنهج الادونيسي في النظر الى كافة مظاهر وانتاج الحركة الثقافية العربية .. « الثقافة كظاهرة قائمة بذاتها » وليست كنتاج لمدى تطور قوى وعلاقات الانتاج المادية .

واذا كان أدونيس يقول .. « ان دراسة البنية الاقتصادية وعلاقات الانتاج تحتاج الى مصادر صحيحة وافية عن التنظيمات الاجتماعية والمالية والادارية والاقتصادية وهي غير متوفرة ، والمتوفر منها لا يقدم كما أرى الا معلومات جزئية لا يمكن أن تنبني عليها او انطلاقا منها أحكام صحيحة » (٢) ، فلا يصلح هذا التبرير للسقوط في هوة المنهج المثالي ، بفصل الظواهر عن عواملها واسبابها وتاريخيتها . فليس ثمة ظاهرة قائمة بذاتها ، ولكن ترتبط البنايات الثقافية للمجتمع بالاساس المادي وتطور قوى الانتاج بهذا المجتمع ارتباطا جدليا مشترك الفاعلية والتأثير على أساس من الدور الرئيسي للبناء التحتي . ذلك « ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة . وان سائر العلاقات الاجتماعية والسياسية وسائر الانظمة الدينية والحقوقية ، وسائر وجهات النظر النظرية التي تنبثق في التاريخ ، لا يمكن ان تدرك الا حين تفهم شروط الحياة المادية للعصور الموافقة لكل منها . وانما هي بالضبط تشتق من هذه الظروف المادية » (٣) .

(٢)

وكان منطقيا أن يفرز لنا هذا المنهج المثالي في رؤية الثقافة العربية . خصائص مطلقة للعقلية العربية.. سببا وليست نتيجة .

أ ــ اللاهوتانية : « فالذهن العربي ذهن الفردنة التجريدية والغيبية المطلقة » (٤) . كما « ان البعد الدنيوي للاهوتانية انعكس على الحياة الاجتماعية والسياسية مما أدى الى تشيئها في الامة أو الجماعة أو النظام. ومن هنا صارت الامة اسقاطا لاهوتانيا » (٥) .

ومن هنا أيضا تنتفي قوانين تطور المجتمعات ، ليصبح الدين هو الذي يحدد شكل المجتمع وليس العكس . « ان الحصيلة العامة العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية ، والذي تقابله أشكال محددة من الوعي الاجتماعي . ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي والاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة . فليس وعي البشر هو الذي يقرر وجودهم ، بل الامر على النقيض من ذلك: اذ ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم » (٦) .

ويرد أدونيس انقسام المجتمع العربي اليوم الى

« بنية قمعية » و « بنية رفضية » الــى « لاهوتانية الذهن العربي » . كما يرد سيادة مستويين من الثقافة في المجتمع العربي ـ « ثقافة تمجيد النظـام الراهن الموروث » و « ثقافة التناسل والاكل » ـ الـى نفس « الذهنية اللاهوتانية » . ولم يكن الامر ليحتاج هـذه المرة الى « مصادر وافيـة عن التنظيمات الاجتماعية والماليـة والادارية والاقتصادية » ـ والتـي هي غير متوفرة ـ ليدرك المرء ان الصفـة الاساسية التي تميز المجتمعات الانسانية ـ منذ العصر العبودي وحتى الآن ـ هي كونها مجتمعات طبقية . وهي الصفـة التي تفسر انقسام المجتمع العربي الى « بنيـة قمعية » و « بنية رفضية » وليست اللاهوتانية .

ان ضعف البرجوازيات العربية ، الذي ادى الـى عدم قدرتها على تسييد نمط انتاجها ، ادى في الوقت نفسه الى عدم قدرتها على تسييد نمط فكرها ، ممـا أدى بالتالي الى تواجد الفكر اللاهوتي بدرجاته المختلفـة مع الفكر العلمي بدرجاته المختلفة. وهذا ما يفسر الثقافة السائـدة في المجتمع العربـي الآن . أما الاسقاطات اللاهوتية ، والادعاء بأن العربي لا يشعر انه موجود في ذاته ، الا لحظـة يتحرر من اللاهوتانية ، فهو لا يخرج عن محض افتراض يفتقر للاساس العلمي .

ب ـ الماضوية : واعني بها « التعلق بالمعلوم ورفض المجهول ، بل الخـوف منه » (٧) . وانطلاقا من هـذه الخاصية يدرك ادونيس « الدلالـة في صراع الافكار داخل المجتمع العربي بدءا مما سمي بعصر النهضة حتى اليوم » (٨) . ولا يدرك ادونيس أن صراع الافكار داخل المجتمع العربي بدءا مما سمي بعصر النهضة حتى اليوم هو انعكاس الصراع الطبقي ، حينما تبدأ قوى الانتـاج المتنامية في التناقض مـع علاقات الانتاج القائمـة في المجتمع . اننا لا يمكن أن نرى في الصراعات التي خاضها قاسم أمين وعلي عبد الرازق وطه حسين وغيرهم دلالة على « ماضوية » الذهن العربي ، ولكننـا نرى فيها صعود البرجوازية المصرية ، وصراعها مـع الاتجاهات الفكرية للاقطاع المدعوم بالاحتلال والقصر .

ج ـ الفصل بين الشكل والمضمون عـلى صعيد التعبير واللغة : « مع ان وظيفـة الشعر في المجتمـع العربي تغيرت في الاسلام عما كانت عليه في الجاهلية ، فان شكله لم يتغير » (٩) .

ان العلاقـة بين الشكل والمضمون ـ على صعيد الفنون كما هي على صعيد الطبيعة والمجتمـع ـ ليست كما يريد أن يطرح ادونيس : علاقة تطابق كلي ميكانيكي. ان تغير المضمـون لا يستتبعه بالضرورة التغير الآني للشكل ، ذلك انالعلاقة بينهما جدلية وليستميكانيكية، يحتفظ الشكل فيها بنـوع من الاستقلالية النسبية عن المضمون . هـذه الاستقلالية النسبية هي التي تمنع حركة الشكل من أن تكون رد فعل آليا لحركة المضمون. فمن الممكن أن يكون المضمون متقدما والشكل غير ذلك . وأيضا عندما يتم التوافق بين الشكل والمضمون ـ أي حينما يصبح الشكل مانعا لحركة وتطـور المضمون ، فيخلق المضمون شكله محطما القديم ـ يظل هذا التوافق نسبيا في اتجاه التناقض . القانون الاولهو الحركة .

ان تغير الشكل لا يتم بقرار ، كما انه ليس محددا بفترة زمنية ليلحق بالتغير الحادث فيالمضمون. وحينما يقـول ادونيس ان شاعر صدر الاسلام « صار يكتب قصيدته بحيث تولد في نفس سامعها تداعيات فكريـة ومشاعر وحالات ، تحركه لنصرة فكرة أو لمحاربتهـا ، وكـان ذلك شكلا متطورا منفتحـا لطريقتي المدح والهجاء » (١٠) ، حينما يقول ادونيس ذلك ندرك كيف ان الشكل الشعري لم يقف معزولا عن المضمون ، وانما لحقه ما لحق المضمون من تغير ، حتى وان كان هـذا التغير جزئيا .

وحينما يروى عن عمر بن الخطاب انه قـال في تفضيله زهير بن أبي سلمى « لا يتبـع حوشي الكلام ، ولا يعاظل في المنطق ، ولا يقول الا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل الا بما يكون فيه » (١١) ، ندرك مرة ثانيـة ان التغير الـذي لحق بفكر العربي قد لحق أيضا بذوقه الشعري وحاسته النقدية في النظر الى القصيدة .

وحقيقة الامر ان قصيدة صدر الاسلام قد لحقها التغير على صعيـدي المضمون والشكـل : اصبحت القصيدة سلاحا دعائيا لمناصرة الدين الجـديد وشن الحرب على الوثنيـة والتغني بالفضائـل الدينية . واصبحت وظيفتها سياسية تبشيريـة ، مما استتبع بالضرورة أن تستعيض بالمنطق عن الخيال ، والتقريريـة والوضوح عن الايحاء ، والكلمـة السهلة عن « حوشي الكلام » . واذا لجأت للصورة الشعريـة ، لجأت الى الصـورة التبسيطية المحدودة ، لا الصـورة المركبة الممتدة .

أما اذا نظرنا للقصيـدة العربية ـ ما بعد صدر الاسلام بفترته المحدودة ـ خاصة الامويـة والعباسية ، لادركنا مـدى التغير الـذي لحق بالقصيدة مضمونا وشكلا ، ولأدركنا كيف ان التغيرات التي طرات عـلى القصيدة ـ سواء في صدر الاسـلام أو ما بعد ذلك ـ ترجع في الاساس الى التغيرات الحادثة في بنية المجتمع الانتاجية والثقافية ، وليس الى بنيته الذهنية .

ان الفصـل النسبي بين الشكل والمضمون على صعيد التعبير واللغة كامن في طبيعـة الفنون وليس خاصية من خواص الذهن العربي .

د ـ التناقض مع الحداثة : « وهـذا يعني ان شخصيةالعربي شأنثقافته تتمحور حولالماضي » (١٢) ،

فهو اذن « يرفض الحداثة الحقيقية : أي يرفض الشك والتجريب وحرية البحث المطلقة والمغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله » (١٣) . وهذهالخاصية الاخيرة ـ شأن الخواصالاخرى ـ هي نهائية وحقيقة سرمدية ، لا سبيل الى الفكاك منها ، ذلك انها من الخواص الخالدة للعقل العربي الخالص المكتفي بذاته لذاته .

(٣)

من هذه المقدمة الادونيسية والتي تمثل رؤيته للثقافة والعقل العربيين ، يمكننا اكتشاف خصائص المنهج الادونيسي :

١ ـ الفصل بين الثقافة واساسها الاقتصادي الاجتماعي ، وهو فصل يردنا الى معطيات الفلسفة المثالية الاوربية في النصف الاول من القرن التاسععشر. هذه المعطيات التي تفترض للافكار بناء مستقلا ، وتفترض ان حركة التاريخ وتطوره هي حركة وتطور هذه الافكار المستقلة بذاتها ، والمكتملة بصورة قبلية . هذه المعطيات التي ثبت زيفها بالنظر الى واقع التطور التاريخي .

وعلى العكس من ذلك تماما .. فان التصورات والفكر ، والتعامل الذهني بين البشر ، تبدو هنا ايضا على اعتبارها اصدارا مباشرا لسلوكهم المادي . ينطبق الامر نفسه على الانتاج الفكري كما يمثل في لغة السياسة ، ولغة القوانين والاخلاق والدين والميتافيزياء الخ .. عند شعب بأكمله . فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم ، لكن البشر الواقعيين ، كما هم مشروطون بتطور معين لقواهم الانتاجية والعلاقات التي تقابلها ، بما في ذلك الاشكال الاوسع التي يمكن لهذه العلاقات أن تتخذها (١٤) .

ومرة ثانية ، لا يجدي التعلل بعدم توفر « المصادر الصحيحة الوافية عن التنظيمات الاجتماعية والمالية والادارية والاقتصادية » ، لما يلي :

اولا : اننا لسنا بصدد دراسة بنية الانتاج في المجتمع الاسلامي ، مما يتطلب توافر مثل هذه « المصادر الوافية » .

ثانيا : ان المتاح من المصادر يعطينا صورة كافية ـ وان تكن عامة في بعضها ـ على الاحوال الاقتصادية الاجتماعية ، بما يمكن من دراسة ارتباط البنية الثقافية والاجتماعية .

ثالثا : ان هذا التبرير الذي يقدمه أدونيس ، يعبر عن انتقائية أصيلة ، ولا يعبر عن ارتباط بمنهج علمي أصيل .

٢ ـ النظر الى العقل العربي على انه تام ونهائي ، يحمل مجموعة خصائص تامة ونهائية ـ استكمالا للمنهج المثالي .

فليست هناك « ذهنية » تامة ونهائية ، لانها ليست نتاج نفسها أو نتاج قوة مطلقة عليا ، لكنها نتاج الواقع المادي المتغير الذي يعكس تغيره في تغير الافكار وتحولها . ان القانون هو التغير والتحول والصيرورة المستمرة ، وليس الثبات والاشياء التامة والنهائية .

اننا لا يمكن أن نفصل أفكار عصر عن الحياة المادية لهذا العصر . ان « أمالفي » ، وهي أول مدينة في العصر الوسيط حققت تجارة بحرية واسعة ، قد كانت أيضا سباقة الى اعداد قانون بحري . ولم تكد التجارة والصناعة تحققان تطورا أعظم للملكية الخاصة ، في ايطاليا أولا وفي بلدان أخرى فيما بعد ، حتى تمت العودة في الحال الى الحق الخاص الذي كان الرومان قد اعدوه من قبل ، فرفع الى رتبة المرجع النافذ النص (١٥) .

ان الافكار لا تملك تاريخا خاصا مستقلا ، وانما ترتد هذه الافكار الى تطور الحياة المادية . ومن ثم ، فليست هناك خواص نهائية لاية عقلية ، لان الحياة الاقتصادية الاجتماعية فيما تتغير وتتطور ، تغير وتطور العقلية والافكار السائدة .

٣ ـ النظر الى العقلية العربية « اللاهوتية » على انها علة الاحداث : أي النظر الى الدين على انه محرك التاريخ ، وتفسير طبقية المجتمع ونشوء الامة ، وسيادة ثقافة تمجيد النظام الراهن الموروث وثقافة التناسل والاكل .. استنادا الى الدين ، بما يجعل أي تطور للانسان العربي مرهونا بتحطيم الدين .

لكن على النقيض من هذه الرؤية المثالية التي تهبط من السماء للارض ، فان الصعود ـ يجب أن ـ يتم هنا من الارض الى السماء . وبكلام آخر ، فان الانطلاق لا يتم مما يقوله البشر وبتوهمونه ويتصورونه ، ولا مما هم عليه في أقوال الغير وفكرهم وتخيلهم وتصورهم ، كي يتم الوصول فيما بعد الى البشر الذين من لحم ودم ، لا بل يتم الانطلاق من البشر في فعاليتهم الواقعية ، وان تصور تطور الانعكاسات والاصداء الايديولوجية لهذا التطور الحياتي يتم انطلاقا من تطورهم الحياتي الواقعي أيضا .

وحتى الاشباح في العقل البشري هي تصعيدات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم المادية التي يمكن التحقق منها تجريبيا والتي تعتمد على قواعد مادية . ومن جراء ذلك فان الاخلاق والدين والميتافيزياء ، وكل البقية الباقية من الايديولوجية ، وكذلك أشكال الوعي التي تقابلها ، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي ، فهي لا تملك تاريخا ، وليس لها اي تطور . ان الامر على النقيض من ذلك ، فالبشر اذ

يطورون انتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع الذي هو خاصتهم . فليس الوعي هو الذي يعين الحياة ؛ بل الحياة هي التي تعين الوعي (١٦) .

ومن هنا فان أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الافكار السائدة أيضا . يعني ان الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة . ان القوة التي تتصرف بوسائط الانتاج المادي تملك في الوقت ذاته الاشراف على وسائط الانتاج الفكري ، بحيث ان أفكار أولئك الذين يفتقرون الى وسائط الانتاج الذهني تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة . وليست الافكار السائدة شيئا آخر سوى التعبير المثالي عن العلاقات التي تجعل الطبقة الواحدة طبقة سائدة . وبكلام آخر .. فهي أفكار سيطرتها (١٧) .

ومن هنا أيضا ، فتحرير الانسان العربي ، ليس مرتبطا بتحريره من « اللاهوتانية ومن تشيئها الاجتماعي ــ السياسي » ، كما ان « نهضة الحياة العربية وابداع الانسان العربي » ليسا مرتبطين « بهدم البنية التقليدية للذهن العربي وتغير كيفية النظر والفهم التى وجهت الذهن العربي ولا تزال توجهه » .

لكن تحرير الانسان العربي مرتبط ــ أوثق الارتباط ــ بتحريره من الطبقة السائدة وتشيئها اللاهوتي . كما ان « نهضة الحياة العربية وابداع الانسان العربي » مرتبط ــ أوثق الارتباط ــ بهدم بنية العلاقات الانتاجية السائدة ، وخلق العلاقات الانتاجية الاشتراكية ، الامر الذي ستتداعى معه كل أشكال سيطرة الطبقة السائدة : السياسية والدينية وغيرها ..

انالامر ليس أمر « البنية التقليدية للذهنالعربى » ولكنه أمر البنية الانتاجية السائدة .

أما اذا نظرنا لتطور المجتمع العربي من زاوية « الماضوية والتناقض مع الحداثة والخوف من المجهول » ــ خصائص المجتمع العربي منذ صدر الاسلام وحتى الآن ، كما استحدثها أدونيس ــ فانه يصبح مستحيلا تفسير افراز هذا المجتمع الغيبي الماضوي ــ بشكل مطلق ــ لامثال ابن خلدون وابن رشد والخوارزمي ويصبح مستحيلا أيضا تفسير أن يصدر عن هذه « الذهنية اللاهوتانية » التي ترتعد هلعا من الحداثة .. المنجزات الكبيرة في الرياضيات والعلوم الطبيعية والكيميائية ، فضلا عن المنجزات الكبيرة للقصيدة العربية خاصة الاموية والعباسية . هذا اذا تركنا جانبا منجزات القرن الحالي .

لا يكفي تبريرا لهذه الانجازات العلمية والفنية الهائلة ، تقسيم العقلية العربية الى فئتين : فئة تجنح الثبات وفئة تجنح للتحول . ذلك انه ليست هناك ــ علميا ــ فئة تجنح عقليتها بذاتها وفي ذاتها للثبات ، لان الثبات والتحول ليسا أمرين عقليين اراديين . ان المجتمع فيما يمارس انتاج علاقاته الاجتماعية المتغيرة ، يمارس انتاج عقليته المتغيرة بمعزل عن ارادة ووعي أفراده . وان تغير العقلية والافكار هذا ــ الناجم عن تغير الواقع الاجتماعي ــ لا يقتصر على فئة من المجتمع ويترك أخرى ، لكنه يغير المجتمع برمته ، بجميع طبقاته وفئاته ، بهذه السرعة أو بتلك .

ان القول بميل فئة الى الثبات بشكل دائم يناقض الواقع التاريخي . ان الاقطاع في بدايات صعوده للهيمنة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية كان يحول المجتمع العبودي وعلاقات انتاجه الى الاقطاعية . كان تطورا انسانيا عظيما . وعندما ترسخت سيادته وأصبح ــ في مجرى التطور التاريخي ــ عائقا لنمو قوى الانتاج البرجوازية الناشئة تشبث بالارض التي يقف عليها . انه ــ في اطار نمو العملية الانتاجية ابان صعوده ــ يثور المجتمع وينقله الى مرحلة تطورية جديدة ، ثم لا يلبث أن يعيق تطور المجتمع للبرجوازية . ومن الممكن ــ مع مراعاة الظروف التاريخية ــ اكتشاف الامر نفسه بالنسبة للبرجوازية .

أما الميل الدائم للثبات ، والميل الدائم للتحول ، فأمر يتناقض مع التاريخ ــ التحول ــ الصيرورة المستمرة .

ان الطبقة السائدة في اي مجتمع . لا تجنح الى الثبات والمحافظة ــ بصورة مطلقة ــ منذ بداية تكونها المادي كطبقة . والا ما كان ممكنا حدوث التحولات التاريخية الكبرى في المجتمع الانساني . كما ان النظر الى التاريخ ــ من مسقط رأسي ــ باعتباره مجموعة من الفئات ــ او الطبقات ــ المحافظة . ومجموعة أخرى من الفئات ــ أو الطبقات ــ الثورية ، والتي يحركها جميعا الجانب الديني . وفقا لمدى اقتراب أو ابتعاد كل فئة عن الدين . استكمال للمنهج المثالي الذي أخذ به أدونيس ، والذي يدحضه تطور المجتمع الانساني ودور كل الطبقات فى هذا التطور .

(٤)

ومن خلال هذا المنهج المثالي ــ في النظر للثقافة العربية ــ يرى أدونيس « ان الظاهرة الشعرية جزء من الكل الحضاري العربي لا يفسرها الشعر ذاته ، بقدر ما يفسرها المبنى الديني لهذا الكل » (١٨) . ولكننا يمكن أن نلحظ ــ في اطار علاقة الظاهرة الشعرية بغيرها وبذاتها ــ ما يلي :

اولا : ان الظاهرة الشعرية لا تفسر ذاتها ، فمملكة « الشيء في ذاته » قد انتهت الى غير رجعة ؛ انما يفسرها ـ شأن جميع الظواهر الثقافية ـ البناء التحتي للمجتمع بعناصره المادية ، غير مغفلين الاستقلال النسبي الذي تتمتع به البناءات الثقافية ازاء الواقع الاقتصادي الاجتماعي .

ثانيا : ان الدين لا يفسر الظاهرة الشعرية . انه كأحد جوانب البناء الثقافي مشروط بتطور المجتمع المادي شأن جميع الجوانب الثقافية . فالظاهرة الثقافية لا تفسر أخرى ، قد تلقي بعض الضوء على بعض الجوانب، لكن لا تفسرها .

ثالثا : ان مرحلة سيادة الفكر الديني في تاريخ المجتمع ، مشروطة بتطور معين لعملية الانتاج، يتجاوزها المجتمع بتطوره الى المرحلة الانتاجية الارقى . انها ليست وجودا سرمديا مستقلا ـ في ذاته ـ يخيم على التاريخ العربي كالقضاء والقدر .

رابعا : اننا لن نكلف أنفسنا العناء كي نفسر لعلمائنا الفلاسفة انهم حين يحلون في « وعي الذات » الفلسفة واللاهوت والجوهر وكل متاع الانسان ، حين يحررون الانسان من الديكتاتورية التي لم تثقل عليه أبدا ، لم يتقدموا خطوة واحدة بتحرير الانسان ، وانه لا يمكن تحرير فعلي الا في العالم الواقعي والا بوسائل واقعية ، وانه لا يمكن الغاء العبودية بدون الآلة البخارية والنول الآلي ودولاب الغزل ، ولا الغاء الرق بدون تحسين الزراعة . ان « التحرير » فعل تاريخي وليس فعلا ذهنيا (١٩) .

* * *

كان هذا المدخل المنهجي ضرورة أولية لدراسة تنظيرات أدونيس الشعرية ، لانه يكشف الاساس النظري لديه في النظر للثقافة العربية ككل ، والظاهرة الشعرية العربية ـ ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ على وجه الخصوص .

القاهرة

المراجع

١ ـ أدونيس : الثابت والمتحول ١ / الاصول ص ٢٤ .
٢ ـ المرجع السابق ص ١٧ .
٣ ـ انجلز : مشاركة في نقد الاقتصاد السياسي لكارل ماركس .
٤ و ٥ ـ الثابت والمتحول ١ / الاصول ص ٢٧ .
٦ ـ ماركس : « مقدمة » مشاركة في نقد الاقتصاد السياسي .
٧ و ٨ ـ الثابت والمتحول ١ / الاصول ص ٢٨ .
٩ ـ المصدر السابق ، ص ٢٩ .
١٠ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
١١ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
١٢ و ١٣ ـ المصدر السابق ، ص ٣١ .
١٤ ـ ماركس وانجلز : الايديولوجية الالمانية . ترجمة د. فؤاد أيوب ، ص ٣٠ .
١٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣٠ .
١٦ ـ المصدر السابق ، ص ٨٧ .
١٧ ـ المصدر السابق ، ص ٥٦ .
١٨ ـ الثابت والمتحول ١ / الاصول ص ٢٠ .
١٩ ـ الايديولوجية الالمانية ، ص ٣٢ .

العاشق الذي انتحر جواده

مجاهد عبد المنعم مجاهد

ودخلنا مدن العشق السبعة أحمل صاحبتي أحملهـا وكأني بطل !

أفلت أنا صاحبتي .. فالصمت يخيّم فيها .. أترى العشاق بها قد رحلوا ؟

لكن باقات الورد مدماة فوق الاسفلت عليهـا تنتحر القبل

في زاوية ألمح عاشقة فتكت وبعينيها ذعر كـاد بهـا يشتعل

وعلى نافذة خطاف ودم ينبـئ بالقرصان ومـاذا قد فعلوا

من ذا جاء بكوكبة من خيل بري فالعشاق جميعـا تحت سنابكها قد قتلوا ؟

أترى هجم التتر عليها أم زلزال فاجأها فاندكت برك عليها الجبل ؟

ورسالات العشق ممزقة ومخضبة بدم فلقد طعنت في الاعناق الرسل

ماذا فاجأهم ؟.. لم يجـد العشاق لديهم وقتـا كي يرتحلوا

أية عاصفة هبت فاختلط الحابل بالنابل ؟ كيف تفسر هذي العاصفة العلل ؟

يبدو انهم كانوا في ساعات الصفو فكأس محبتهم في أيديهم لكن يبدو انهم من كأس الحزن لقد ثملوا

كان السطر يفوح من الاعطاف .. الآن بعطر المـوتى اغتسلوا

كان الفرح يكحل أعينهم ها هم بمراود ليـل اليأس اكتحلوا

كيف ترى طاردنا الحزن الى مدن العشق السبعة ؟ كيف جنود الحزن الى مدن العشق السبعة قد وصلوا

أو لم تكفهم مدن الدنيا ؟ تبعوا العشاق لكي لا يبقى حلم للعشاق وكي ينتحر الامل

آه اني أسمع وقع الخيل ورائي .. عبثا تسأل عينك يا صاحبتي : ما العمل ؟

لست أنا بطلا ولئن كنت حملتك في البدء أنا بطلا ، وتبدد في داخل أثوابي الرجل

عبثا تنتظرين فسيفي مكسور وأصاب الساقين الشلل

اغلقت البوابات وكل التتر عـلى الاسوار وها نحن أسارى سدّت في الوجه السبل

عبثـا تنتظرين .. فسيفي مكسـور والحزن الآن هو البطل !

مدينة المقطم (القاهرة)

شرخ في الرخام القديم

قصة بقلم ادوار الخراط

ايقظه حفيف الاحلام والفجر المضطرب .

كانت الغرفة حاشدة الى جـانبه ، عارية تحت الملاءة الخفيفـة ، انفاسها ثقيلة . أحسّ نداوة العرق على ساقها بجـانبه . وتخايلت له ضخامة فخذهـا الناعمة السمراء ، فابتسم .

وداهمته موجة الحب عاليـة ، ــ فجأة على غير انتظار ــ فانقلب عـلى السرير ووضع ذراعـه بحرص وحنو على كتفها . لم تتململ ، ولكن من يقول له انها لم تحسّ به ، وانها لم تعرف ، حتى في نومها ، فـي حركة أحشائها المعتمة ، هذا الوهج الدافيء الداكن في قلبه من الرقـة والقربى . استمرت أنفاسها تصعد وتهبط منتظمة ، شعرها ملتصق بجانب جبهتها الضيقة، وقميص نومها مفتوح وقد تزحزحت فتحتـه الواسعة على جانب من ثديها المسكوب . اقترب بوجهـه تحت عنقها وتعرف مرة أخرى على رائحـة نومها وحرافة جسدها الدسم . واندفع في جسمه حس لاسع مـن المحبة والتمزق والرضا في وقت معا .

لن تعرفي أبدا يا حبيبتي، في هـذه اللحظة التي لم يشتبه عليك انها حدثت لنا ، كم كـان حبي كاملا ، وموهوبا لك دون أن يقتطع منه شيء ودون أن يكون في صفوه ادنى أمل ، ولا مشاركة . خالصا لا أنانية فيـه ، مطلقا لك انت وحدك ، دون أن يكون جامحا . ومكتوما بلا حرج . ورأسه غير ملوث وغير جريح . لن تعـرفي أبدا انني تركت نفسي تغمرني المياه الثقيلة ، مبتسمـا أو لما أكد ابتسم ، في هذا اليم من الحب القاتم الزرقة ، لا موج فيه ، وان الفجر عندئذ كان هذا البحر ، ضفافه هي أسوار العالم وأنا أغوص فيه ، سماؤه بلا قرار .

كشف عنها الغطاء الابيض المتغضن مـن ليلتها ، ونزل بوجهه من على المخـدة ، ورمى بذراعها حـول ردفيها ، وهو يثني ركبتيه قليـلا حتى لا يسقط من طرف السرير . أراح عظام خده عـلى صفحة فخذها العريضة ، خشونة ذقنه على طراوتها التي نزلت قليلا تحته وتماسكت . وجاءته أنفاس الجسم النائم المـليء تمتزج به نفثات الفتنة المكتومة المغلقة ، لها طعم ثقيل .

في هذه الراحة قلق أجنبي عنها ، يأتي من اللحظة القادمة . من خطر لم يحل أوانه بعد ولم يتكون بعـد ولكنه يحمل تهديدا ما . في البدايات الاولى مـن يومه انحسرت اللحظة الراهنة بالفعل وهو ما زال فيها . لم تأت اللحظة القادمة وهو لا يعرفها بعد . وعندما أسقط وجهه برفق على فرش لحمها الطيب الخصيب الـذي يتلقاه الآن هينا ، مطواعا تحت صلابته ، سقط أيضـا في حفرة بين زمانين كلاهما غير موجود . تردى فـي فراغ ليس فيه تحقق بينما هو يغرق في عجين الجسد السـاكـن .

لم تلحق به ، في نومها . لم تمد اليه يدا . لـم ينقذه شيء . لم يجد ما يتعلق به في سقوطه ، حتى عندما استدارت اليه بين الوسن والصحـوة ، تئن انة واحدة خفيفة من الراحـة وطيب الحس بأنه هناك ، وجهه عليها ، ، والتفت بذراعها حـول راسه تضغطه اليها ضغطة حنان ، وقالت : « صباح الخير يا حبيبي ، تعال عندي » . قال وفمه يكاد يكون مسدودا بحشوها الدمث : « أنا عنـدك يا حبيبتي ، أين أنا ؟ » . ثم استدرك : « صباح الخير » . ورفع وجهه مـن الحمأة العـذبة المحتشدة وذراعها يشده الـى حضنها شدة رقيقة . وهو يسقط فجأة وباحتدام على فمها المفتوح .

يا حبيبتي ، ما الذي يفصل بيننا ، مـع ذلك ؟ ما الهوة الفاغرة بين جسدينا الملتصقين في عمق شهوة الفجر الاولى ؟ ما الغربة الضاربة فـي عظم العنـاق ؟ بينما صدرك مدفون مضغوط فـي حضني ، فخذاك ملتفتان بساقيّ ، عيناك تحت جفنيهما المدورين حجران لامعان لا يذوبان أبدا ، تسيل على صفوهما مياه الرغبة وطلب اللذة . أجسادنا أحجار ندية سخنة لا تندمج ، منفصلة حتى في تماسها الوثيق .

في مركز هـذا الكون ، في القلب المتنفض الذي يميد ، في نقطة ما على المحور النابض الدفين ، هنـاك عين متيقظة أبدا ، موحشة ، متقدة بنار صلبة ، نداؤها لا تأتيه اجابة ، ليس الموت الذي يفصل بينـنا ، انت لا تموتين أبدا . وليس الحب . أنت دائما تحبين ، وانت

ما أحب ـ اهي اللذة . سيف خبيث يقطر بالدم والمنيّ واللبن المتخثر الرائحة . يقطع ما بيننا ؟ لسانك المنلىء يلعق حده الباتر المحرق ، وصرختك المكتومة أنين من المتعة والتحقق والالم . لساني جسدة جافة تحترق . وتتقبض كالرق القديم ، وتسقط . فلا أجد الكلمة المحيية بعد أن أموت في طعنة المتعة . وجسمي كله تلفحه رياح مسمومة .

كانت رعشتها الاخيرة موجة تصل من بعيد . وترقرق قلبه أيضا ثم جمد . وابتسامتها غائبة وسعيدة ومكتفية . بين نوم وآخر .

عندما أستيقظ من ميتته الصغيرة كانت النافذة فتحة منقوبة في السماء . محجوزة بستارتها البيضاء المتهدلة قليلا . عن الهواء الذي يحسه في الخارج باردا ومعاديا . ومن وراء الزجاج الفاصل كانت السقوف المنحدرة في خطوط حجرية حادة الزوايا ، قديمة ومسودة من الدخان ، ومتجمدة . تطل على فناء عار . وجهها الاسمر المدور هو وحده الذي يبدو من الملاءة التي تلفها . مرتاح وقانع في نور الصبح الضعيف المثقل برائحة شهوات قديمة منقضية .

كانت عظام جسمه خفيفة وهو يطوّح بنفسه يتب من على السرير . عندما نظر الى الفناء المربع الضيق الغائر بين الحيطان المسدودة كانت أحجار الارضية الرمادية مكسورة ونظيفة كالرخام . بين شقوقها تراب أسود متحجر . لم ينبت فيه اخضرار ، كان خاليا تماما . وبجانب الجدران الحجرية الصم ، من غير طلاء . صفائح مستديرة ضخمة سوداء مغلقة بأغطيتها المقببة المبلولة بندى الصباح ، مرصوصة بانتظام . الشجرة الوحيدة تنبثق من الحجر بخشبها النحيل القوي اللافح القتامة ، معوجة محنية ولكن لا تنكسر . تحملت كم شتاء من الوحدة وتصدت لكم عاصفة ؟ وتلوت أمام صدمات الرياح . ولكن لم تنكسر . أحسّ أيضا في داخله مشقة الخشب وتشققه .

قال لها وهما يستعدان للنزول :

ـ كل ورقة . على كل غصن ، بشرايينها البيضاء الباهتة الدقيقة في اللحم الاخضر الرقيق ، أليست معجزة ؟ هذه الكثافة المشغولة بدانتللا رقيقة الجسم . الملتفة حول جذوع ناعمة العضلات ، هذه الخضرة الموسيقية بظلال لا نهاية لها . مطفأة ويانعة وخافتة . هامسة وساطعة وغضة ، وداكنة وقديمة ومرتجفة ؛ اليست معجزة ؟ والطيور الهشة الصغيرة تتطاير في رحاب هذا الغنى الخطر ، شهبا حية في مجرّات أفلاك سوداء شاسعة ، اليست معجزة ؟ مئات ، آلاف . ما لا حصر له من المعجزات ، يتكرر باهمال ، دون عناء . حوالينا ، دون أدنى ضجيج . ما أشد كرم هذا . ما أكثر سرفه . هذا الاغراق . بلا مبالاة . في المعجزة التي تحدث بلا انقطاع . الاعجاز هو هذا الذي لا وصف له ، نسيج اليوم والليل الصامتين أبدا ، بلا انقطاع .

قالت : هذا ما أجده كل يوم في الصبح عندما افتح نافذتي . أنا ايضا أحب الشجر ، كما تعرف .

أدرك ان في تعجبه شيئا من السذاجة ودهشة ابن الازقة والحواري المحرومة من الخضرة ، وأيضا روع المأخوذ بثروة فادحة . ولكنها دائما في متناول اليدين . ولا تطال مهما غرف ملء الراحتين والعينين ، مهما ضم عليها الدراعين والساقين في شبق يتجدد دون توقف ، وتظل الثروة كاملة لا تمس ، تنبض بصمت في ازدياد جسدها الذي ينمو ويتدفق ويسيل على الجانبين . اما في نبرتها فتفة بأن العالم معطى والحياة مسلم بها ، ميراثها وملكها . مأخوذة مأخذ الشيء المفترض أصلا ، ولا اهتمام به .

قال لنفسه : متى تنتهي من تفلسفك هذا الذي لا يساوي مليمين ؟

كانت تنظر اليه بعينين صافيتين . بحيرتان ما مدى عمقهما ؟ القاع تحت السطح مباشرة لا تكاد تمسه القدمان ؟ أم غور بلا قرار ؟ رمال صحرائه الداخلية قاحلة تحت شمس العيون الصخرية اللامعة القسوة .

لا نكن قساة يا رامة ، على أحدنا الآخر أقصد . ألا ترين أن العالم كله من حولنا يطفح بالقسوة ، بمبرر أو من غير مبرر . سواء ؟ والجدران والناس التي لفحها لهيب الشهوات والاخفاق وضربتها الرياح واللامبالاة ، جافة . محروقة . نحن أيضا نستطيع أن نكون ـ أقصد اننا أيضا بالفعل ـ قساة . هذه القسوة درع هشة وان كانت مروعة الشكل ، أنيابها زرق مشعثة وفمها فاغر غائر الشدقين ، عيناها لا تطرقان . ألم نتعلم كيف نصمد للقسوة الا بالقسوة ، ودعينا على الاقل لا نقسو أحدنا على الآخر . اذا استطعنا ، كلما استطعنا . لان ضرباتنا موجعة . تقع على مقتل . وقد عرفنا ـ أليس كذلك ؟ ـ أين منا مواضع الجراح القاتلة. مهما اخفيناها تظل مفتوحة نازفة تهضب أحيانا بالدم السخن وتظل دائما تنضح بقطرات منه قاتمة لا تجف ولا ينقطع نزّها .

قال لنفسه : نسيج حياتنا نفسه هو هذه الميتات الصغيرة . متعاقبة بل منصلة مستمرة كل يوم ، كل لحظة . ها نحن نموت اذن اذ نبعث الحياة في كل نفس.

قال لنفسه : متى تنتهي من فلسفة المليمين هذه ؟

قال لنفسه : انت تأخذ صوتها لنفسك مرة أخرى. هذا أيضا من خطوط دفاعك القديمة . متى تتعلم ان تقف وحدك ، كافيا لنفسك ، من غير تبرير ، من غير حاجة الى هجوم ولا دفاع ؟

الدفاع عن الشيء الصغير الناعم الحي الهش النابض بخوف وتهور وعناد معا ، القطعة الوحيدة من الجسد التي لو أصيبت لتحول جسم العالم كله الى جثة يصعد نتنها الى عنان الافلاك الشاسعة ، ويزخمها .

قال لها : كان هناك الكثير جدا في الميزان . بل كل شيء . قامرت بكل شيء . كان الرهان عاليا جدا ، على كل شيء .

وهما يقبلان معا على أنوار المولد وزحامه وضجيجه ـ يمسك بذراعها فتتركها له ، لحظة ثم تتعثر في حفره على الرصيف وتتماسك وتعتدل وتسبقه خطوة .

ولكني خسرت ، خسرت حتى قبل أن تبدأ اللعبة. لم تكن لعبتي . رميت بكل شيء . كل شيء ، في الميزان . وخسرت . كان لا بد أن أخسر ، ليس هناك من يراهن بكل شيء ويكسب .

بل لا يوجد هنا مكان للمكسب أو الخسارة ، فان اللعبة لا تدور ، أصلا . وتصبح المقامرة كلها خارج الحلبة ، في الظلام ، غير مرئية وغير مفهومة .

جانب وجهها . بين أمواج الناس الكثيفة ، منارة ملساء الجانب ، مدورة هادئة ، وهما يتركان ، في هذا الدفء من الاجسام والاحجار ، مخازن الخشب الواسعة الضخمة الابواب ، وكاراجات السيارات تعلوها اعلانات توكيلات فورد وشيفروليه ونصر بالحروف الانكليزية والعربية العريضة المحدودة ، وسور الاسطبل الخديوي الحجري الطويل وعلى بابه رأس حصان منحوت من الحجر ، والشرفة الرقيقة الاعمدة بخشبها المشغول تطل على رخام فترينات الكبدة والكباب عليها أكوام حمراء قاتمة متهدلة من اللحم المقطوع ، ودكاكين الفسيخ والسمك فيها الصفائح اللامعة المليئة ترتفع في أعمده مرصوصة .

كل شيء هنا والآن موضع السؤال . ليس الحب فقط بل وجودي نفسه ، ومشروعيتي كانسان ، كرجل. الحقيقة والخداع . الامانة والخيانة . كل شيء . الحرية والقهر الانساني والالهي معا . أنت معي الآن ، لا تنظرين اليّ ، كأنك لست معي . ولكنك هنا ـ كالكون كله ـ فيك حقا قبس من كيان متعد متسام الهي . هناك بيننا حكاية كونية ، الهية .

وهما يزاحمان الناس ويمران بين عربات الترمس بقراطيسها المصنوعة من ورق كراريس التلاميذ وشعلاتها الصفراء التي لا تكاد نارها ترى تحت الانوار الساطعة الساقطة من الجامع القديم الا من دخانها الذي يتشتت في ذؤابات مستدقة متطايرة ووميض الكلوبات بنوره القوي الثابت على أكوام الحمص الاصفر والابيض الملبّس بالحلوى المتشققة وعرانيس المولد الحمراء قليلة وأوراقها المفضضة متكسرة قليلا وأصفاط حب العزيز الصغيرة المسحوبة المزوقة .

قال لنفسه : تتوهم ، دون أن تشفى ، ان هذه الحكاية بينك وبينها شيء صوفيّ . ألا تخلص من هذا الهوس ؟ انت معها هنا ، بفتنتها وقبحها ، أليست امرأة يا أخي . شيء آخر في هذا الغمر الذي لا ينتهي من الناس . عظيمة كانسان وامرأة ، ومسكينة أيضا . شقية وطموح ، مرحة ولها أسرارها الصغيرة والكبيرة ـ ككل الناس أليس كذلك ؟ ـ لها عيوب جسمها وجاذبيته التي لا تقاوم . نعم . احبها الكثيرون وأحبت الكثيرين ، وماذا في ذلك ؟ أخطأت وضحت وتعبت وأدت واجباتها وأكثر . وأوت أيضا الى أحضان عشاقها ، لم تعن كثيرا بمصطلحات خلقية واجتماعية ولكنها راعتها دائما في ذكاء وانتباه ، رحمتها وشهوتها ، تسع كل شيء . أنت لا تعرف على كل حال ، الا أنها ، معك ، امرأة تعرف كيف تتمتع وتمتعك . وأنت تحبها . فليكن ، ألا تستطيع ان تقبل ذلك على حدوده ؟

المئذنة الضامرة السامقة ، نحيلة ورشيقة ومعزولة وحدها مع السماء تتدلى منها سلاسل الانوار الكهربية الملونة ، نقط من الحلوى الكثيرة الكثيفة الضوء ، تهتز بلا تلاصق على الاحجار الالفية التي تعرى لحمها القديم تحت الخطوط العريضة الافقية البيضاء المغبرة والباهتة الحمرة .

وهي تسير بثقة الى جانبه ولكنها ليست معه ، كانها ولد ، ولكن برشاقة أنثوية من نوع جريء ومتمكن، بحذائها المنخفض غالي الثمن الذي بهت جلده من التراب وتخشن . وجيبتها الواسعة على جسمها المستحكم الاركان ، وبلوزتها المفتوحة الممتلئة بصدرها وقد تندى بعرق خفيف يلمع في الليل المنير . لا يكاد ينظر اليها الناس في الزحام ، وهي غائبة عنه ، احسها قد انسحبت مرة اخرى عنه الى عالمها الخاص .

القبة العريقة يعلوها هلال صغير يبدو كأنه صدىء ، في الاشعاع القوي الذي يأتي من تحت على جلد السماء الباهت الزرقة . العتبات المباركة تحت الباب الضيق العميق تضيئها القناديل الكهربية وتفضي الى سلام داخلي يبدو بعيدا ومنفصلا .

كان حسه جامدا في هذا البذخ الحسي الغليظ الحواف . كانت وحيدة الى جانبه وسعيدة . مليئة بالطاقة بعد ساعات الخمول والركود التي لم تكد تبدو لها نهاية . نشطة متوفرة بالضيق والاندفاع . مرتبطة بالكثير والكثيرين ومنعزلة متفردة . صنعت أشياء مجيدة مجهولة لا يدري بها أحد ولم تفعل شيئا في النهاية مما تريد حقا أن تفعل .

من الناحية الاخرى شرفات البيوت الخشبية المشغولة على طراز المشربيات ، ولافتة ضخمة باسم الاتحاد الاشتراكي العربي وأبواب من الحديد الرقيق دائرية النقوش أحجارها الجديدة المقرنصة في تقليد

بارع للطراز القديم تغطيها طبقة من تراب دسم باهت القتامة وكراسي أنبار الافرنجي المطل على النيل ما زال فيه عزّ العشرينات . والاعلانات على المرايا المصنوعة من الزجاج البلجيكي تآكلت أطراف زئبقها الفضي. والشارع الفسيح اصطفت في وسطه عربات الفاكهة والخضار والعيش البلدي والشامي والمحمص بأرغفته الصغيرة الهشة المحموشة بالسمسم ، والفجل والخص الطري والكرّات المتهدل الشواشي ، يغص ويفيض بالجلاليب والقباقيب والملايات والبنطلونات والعمم الصعيدي والكلاكسات وانوار النيون وطشيش الزيت ورائحة السمك المقلي النفاذة الثقيلة في هواء الليل .

اقترب منها واخذ بذراعها الغضة مرة اخرى .

كم من أشواقك احبطت يا رامة ، وكم من سعادات تحققت لك . انت محدودة ومحددة ولانهائية . دائبة البحث عن كمال ما ، مفقود . وكأنك خالدة لا تموتين . الرقه والروع معا في قلبه المهتز . لكن الحب فيه قاطع الحدود ليس فيه خليط متميع السوائل . بل حاد له نتوءات تجرح وتحز في اللحم الحي خطوطها الغائرة .

كانت سيارتها الصغيرة المعتمة تشق الآن طريق النيل في أول ليل القاهرة ، تحت أنوار كوبري امبابة ، وكانت فيها رائحة مقلقة لحواسه ، مزيج من رائحة الجلد والصفيح ولزوجة لبن قديم وحرارة احتراق البنزين .

كانت قد بكت . وهي تقود السيارة. بدموع متدفقة سهلة وصامتة ، وكان يحسّ احباطا عميقا وجارحا ولا يعرف بالضبط مرجعه . وكان جامدا ينظر الى دموعها بعينين صاحيتين ويقول لنفسه : ما الذي يوجعها ؟ ماذا يمكن أن يعزيها ؟

كانت قد قالت : لا يحدث لي أبدا شيء مفرح .

وكان يقول لنفسه ، في قسوة : ماذا تريد ؟ هل هي تريد الرجل ؟ الرجل أيا كان الرجل ؟ أم تريدني انا ؟ ولماذا هذا العكوف الآن على نفسي ؟ هل يجب أن تظل دائما منفصلا مغلق الحدود ؟ الا يمكن أن تندمج ، انت ، في هذا التيار العريض المتدفق بالدماء والمنيّ والمياه الطينية ؟ وتذوب فيه ، وتعبّ فيه متعتك ، غفلا مجهول الاسم مفقود الهوية ؟ كأنها ، هي ، تريد أن تغرق — كما تريد كل ليلة — في امواج هذا النهر الذي لا تنتهي ، سوداء خصيبة ، طين جسدها نهبا مستباحا، لتصحو مغتسلة ومشرقة ، اللوتس اليانعة بسمرتها المصفرة المتوهجة منبثقة عن الطين من بين فخذي حابي القديم الذي ليس له ضفاف يأتي من بحر العالم السفلي ويصب فيه بلا انتهاء . أما أنت الآن فجزيرة رملية صلبة القوام .

قالت له فجأة . وقد توقفت العربة في ميدان ساحل روض الفرج ، وعلى البعد عربة تين شوكي يئزّ فوقها المصباح الغازي بشعلته الوحشية ، في غيامه متقطعة الذيول من بعوض الليل الصغير المتطاير . والبائع بجلابيته الطويلة قامة غامضة في الظل ، وصندوق الكوكا كولا وقد بهت لونه الاحمر وتساقط طلاؤه وامحت الحروف العربية والانكليزية من على صفيحه المرصوص ، وسيارات تاكسي واقفة على رصيف الكورنيش تحت الشجر ، قديمة الزرقة ، منخفضة السقوف ، جعارين نائمة متربة ، والشارع يصب الى خرابات مكشوفة لا تكاد تتبين فيها الحفر بين أكوام الطوب والحجارة ، والمقاهي ساطعة خالية ، خطوط لافتاتها كبيرة ملونة منعرجة ، والقرآن ينطلق منها بقوة ، في تلاوة راسخة ، وبيوت متطامنة خفيفة وضيقة ، وعسكري المرور أسود وصفير على البعد ، يقف كأنه تائه في وسط الميدان ، قالت له فجأة : ميخائيل ، اذا طلبت منك فهل تترك كل شيء وتأتي معي ؟

كانت عيناها مجنونتين . أما هي — بعد البكاء — فهادئة ساكنة لا حراك بها ، صافية الوجنتين في ضوء مصابيح الشارع المتقطر من خلال ضبابة غبار دقيق لا يرى .

كانت يداها المكتنزتان مرميتين على فخذيها بلا حياة على الجيب القصيرة الزرقاء القاتمة القديمة اللون . كل شيء يتقد في نقطة حميمة داخلية ، مدفونة عميقا بعناية في هذا الجسد الذي يبدو مفتوحا ومكتوما.

قال : اذا طلبت ذلك مني حقا ، نعم .

كان صوته سريعا ، لا تفكير فيه ، متهدج الاطراف.

لم يقل نعم مطلقة من غير شروط بسيطة فورية مباشرة . لانها لم تقل له : اترك كل شيء وتعال معي . مطلقة ، بكل اليقين ، بكل اليأس . لم يقل لها : نعم ، نعم الآن وفي اية لحظة . لم يقل لها حتى : نعم عندما تطلبين مني ، في اللحظة التي تطلبين مني . كان يعرف ان السؤال معلق بأشياء كثيرة ، بل كان يعرف ان السؤال لا يتعلق به ، هو ، لا يقصد به أن يترك كل شيء ويذهب معها ، كان يعرف انها تطلب شيئا آخر ، عرضيا ووقتيا زائلا ، انها كانت ، بهذا السؤال الذي يضرب الصميم ، تطلب منه ليلة فقط ربما ، أو بعض ليلة ، لغاية الصباح ، وانها تلعب بالمستحيل ، وتقامر بالضروري ضرورة الحياة والموت نفسها .

قالت : نعم ، افترض انك تحبني ، بطريقة ما .

فلم يقل لها : بل انت ، أنت التي تحبينني بطريقة ما . أم هذا يوازي قولك : « أنا لا أحبك » ، لا أدري لن يكون ما بيننا حكاية . فما هذا ؟ ما هذا الذي بيننا الزلزال الاعصار السماء الساقطة . أما أنا فأحبك. من غير حدود . من غير تحديد ، من غير تحفظ ، حبا

كاملا يريدك كلك كاملة . الكمـــال أيضا مستحيل . والاستحالة كاملة .

قالت له : لقد كنت ، معك ، نفسي . معك وحدك حاولت بقدر ما وسعني ، بكل ما وسعني ، أن أكــون نفسي . صادقة الى آخر ما أعرف الصدق . بمزاجـي المتقلب . بشرودي وسرحاني اذا شئت . حزينة أحيـانا وبعيدة ، مرحة بالطبع اذا جاءني المزاج ومملوءة حيويـة واقبالا . أليس كذلك ؟ لكنك تقــول انني لا أحبك . لا أعرف ماذا تريد أن تقول .

بعد البكاء كان وجهها صحوا ، ناعما . عاد قناعا . من جديد .

قال لها : انت غير عاطفية بالمرة .

كان مريرا .

لم يقل لها : هــل معنى هذا انك لا تعرفــين ما العاطفة ؟

لم ارك عاطفية أبدا ، وتعصف بك العواطف . الا عندما كنت تقولين ــ نادرا ما كنت تقولين ــ عـن ذات نفسك الخبيئة وتدافعين عنها . يا ذات الاقنعة .

قال لها ايضا : انت صارمة ، ولا تعرفين الهوادة .

نظرتك الاكلينيكية الصامتة المتفكرة التي تحسب حساب أشياء كثيرة . وتتخذ القرارات ، وحدها ، لذتك الخاصة في التشخيص والمعرفة والتماسك . لحظة ثم تنصرفين ، دون اهتمام الا بأشباع حافز قاس محـايد نحو القبض ثم الراحة . خوفا من رعب المشاركة وعقابيل المشاطرة في التجربة ، حرصا دون التخلي عـن ذات نفسك . أنت تتخلين عن ذات جسدك ، عن طواعية . نعم . تتركين هذا الجسد ، عنـدما تريدين ، كأنما بالرغم منك . مستباحا بلا أســوار ولا حيطة ، حتى تحتفظي بنفسك دون خدش ، دون مساس .

قالت له : ما هذا ؟ هل نحن نجري الآن تشريحا على الجثة بعد الموت ؟ ليست أمامنا بعد ، فيما آمل . جثة . هذه العلاقة بيننا ، لم نضعها على رخام المشرحة بعد . ما زال بيننا شيء حي ، فيما ارجـو . ما زلت أعرف كيف أكون صديقة حقـا ، صدقني أعرف كيف أكون صديقة ، وأعتز جدا بالصداقة .

ستقول له ، فيما بعد : ان ما بيننا ، ربما ، كان صداقة غرامية .

قال هازئا ، بصوت مكتـــوم : لا أريد صداقة . لا أريدك صديقة .

وفيما بعد كان يردد لنفسه اجابته ، لم ينزل عنها أبدا ، لم يكن يريد هــذه الصداقة . بل شيئا آخر واكبر الى ما لا نهاية . ويقول لنفسه : أنت طموح جدا . وصفر اليدين . أليس كذلك ؟ وكانت دموعه صعبة جدا كأنها تسقط واحده بعد الاخرى . ثقيلة ، وتأخذ معهـا شيئا من ضلع الجــدار الداخلي للقلب . مـــع تقدم السنوات تصبح الدموع جافة وصلبة ، ويصبح العذاب صخريا . بدلا من عواصف الشبـــاب التي تهز وتدوم وتهمي بمياه الالم . يصبح الالم حجـارة لا تذوب ولا تتفتت . فاذا تكسرت تحت وطء القسوة كـانت شظايا مثلومة غير حادة . كاتمة وضاغطة لا تنزاح .

كان يعرف انهـــا سوف تستخدم كل شيء في سبيل الحصول على ما تريد . كل شيء : الافكار اللامعة المصقولة التي تعرف كيف تلعب بها وتقلبها على وجوهها . القيم الجديدة أو التقاليد العريقة على السواء ، تسيرها وتحرك كوامنها وتزيح الغطاء عـــن شحناتها . سوف تعرف كيف تترجى وتتوسل وتبكي وتداعب أرصـــده الغرور وتهدهد المخاوف وتستنفر النعرات وتربت على تورمات الكبرياء السهلة والزهو بالذات . سوف تستكين وتتطامن ، أو تتنمر وتتحرش . كل شيء تفعل ، تطوع . من جسدها وعقلها وتركيبتها الغنية المليئة ، مادة حية متدفقة تهجم عليك . وتحاصرك من كل جانب . ولكن بأمانة مطلقة . ليس عندها من ســـلاح الا هي : انت وهي فقط . العلاقة بينكما فقط ــ علاقة تلخص العالم كله حقا ولكن لا تتجاوز نفسها اليه ولا تستمد منه زادا خارجيا . هي . جسمها وروحها ، رحمها وذكاؤها . هي كلها . ولكن وحدها . هي نفسها أداتها وسلاحها . وأنت . مهما كانت الطرائق والاساليب فهي كل الامانة وكل الصدق . الامر كله بينك وبينها . فقط لا شأن به لأحد او لشيء في خارج هذا الذي يدور بينكما . انتما فقط . هنا تفردها وصدقها الفذ . أنتما وحدكما تقرران ماذا تريدان بهذه المادة المطواع القوية القوام التي تلتصق بكل منكما . تلتف به وتفريه وتطبق عليه الخناق فـي حصارها الناعم الذي لا يطاق .

قالت له : لا معنى أن تبقى معي في الغرفة . أنـا انتظر التليفون . يمكنك أن تخرج . ألا تريـــد أن ترى المتحف ، أو تمر على الدكاكين ؟ لا تشتر شيئا يا أخي اذا كنت لا تريد . تفرج عـــلى الواجهات . صحيح ، لا أريدك أن تحبس نفسك معي .

قال : ايي ؟ هل هذا ممكن ؟ لا ، سأبقى معك .

قالت بضيق وهي ترمقه بنظرة سريعـة حاسبة : أبدا . لا أريدك أن تضيق بي وبنفسك ، في هذه الغرفة المقفـلة .

قال : يا ستي لكن أنا أريد . اريد أن أضيق بك وبنفسي ، ما دمت معك .

كان الحبس في الغرفة كثيفا وغائما ، لا تقطعـه الا النافذة ، كجرح لا ينـــدمل . كأن وجودها معـه ــ لحمها وجسدها وتوترها وقميص نومها الذي عليـه

جيب قديمة واسعة حائلة اللون ـ يملأ الحبس بعجين حاشد القوام لا يكاد يلتقط فيه أنفاسه .

قالت له . بعد ذلك : سأخرج قليلا . عندي ميعاد .

قال : من ؟

قالت : أنت تعرف ، قلت لك .

كانت قد حكت له عن صداقتها مع رئيس الوزراء السوداني السابق . العجوز طيب القلب حاد الذكاء واسع المعرفة . ما زال يحتفظ ببقية وسامة قديمة عربية زنجية ؛ نفى نفسه خارج السودان للعلاج والسياسة معا . قالت له : هذا الرجل شهد مولد كل أطفالنا ؛ في العائلة . كانت أول هدايا يحملها الى مصر في زيارته هي هداياهم . كانت سهراته في بيتنا هي الوقت الوحيد الذي يعرف كيف يستمتع به .

كان الرجل قد جاء منذ يومين وسلم على ميخائيل بيد باردة راحتها باهتة اللون ؛ وعين باردة عاقلة النظرة فيها حدة مكنومة قديمة ؛ وشهدوا معا مباراة تنس في التليفزيون في الردهة الخاوية المعتمة التي تتناثر فيها مقاعد مشفقة الجلد ؛ موحشة . غير مستعملة . وتحدث الرجل . بحذق الديبلوماسي الاديب العريق العجوز الملول . عن ضربات التنس وضربات القدر . ودخل في تفاصيل تكنيكية طويلة عن لعبة التنس ولعبة السياسة . وهي تبادله براعة الحديث ببراعة ، وميخائيل لا ينتهي عجبه من صنعتها في الحديث عن موضوع لا تعرف فيه شيئا كثيرا ولكنها تلتقط أطرافه من محدثها نفسه ، بأيد مدربة سريعة ، بذهن رشيق الخطى خفيف الحركة . ودائما يسيل الجنس من كلّ مسام جسدها وعقلها ويفيض من عينيها . ماذا بينها وبين هؤلاء الشيوخ ، هذه الحطام الباقية من أجسام وعقول كانت فتية وباهرة وتركت بصمات اقدامها على أحجار التاريخ ؟ وهي دائما هناك ، في الظل ولكن مؤثرة . حنانها الجنسي اللين الناعم يغلف هذه الركام الحادة الجافة الجسيمة المائلة بعد عزّ رجولي قديم .

كانت قد قالت له : يا روحي على دون كيشوت . أحبه ؛ أحب كل شيء فيه .

الشيخ الذي لا يريد أن يسقط رمحا تركه في يده عصر غابر .

تجمع صوره وتماثيله الخشبية والحديدية والشارات المعدنية البيضاء المنقوشة عليها ملامحه الحادة . وتجمع أيضا تجسداته . سأل نفسه قلقا : هل أحارب أنا أيضا طواحين الهواء ؟ نعم ، العدل مستحيل ، الحب مستحيل . فهل يمكن أن أقبل ؟ هل يمكن أن أسلم ؟

وعندما عادت طرقت عليه الباب فجأة . على غير انتظار . جاءت مبكرة ؛ وكان في أعقاب نوم الظهر القصير المضطرب ، كان يتحدث في نصف النوم الى ناس الحلم ، لا يعرف من هم ، ولكنه يعرفهم . وقام بسرعة على طرق الباب ، يفتح ، نصف عار لا يدري تماما أين الباب وهو يفتحه . قالت له ، بنظرة صلبة سريعة : ماذا ؟ هل تقوم باستعراض ستريبتيز أم ماذا ؟

كانت قد قالت : ماذا تظن ؟ هل تظن انه سوف تكون لي معك علاقة غرامية ؟ وانني سأكون عشيقتك ؟ هذا مثير للسخرية . لست عشيقتك . لن أكون عشيقتك . لن تكون بيننا علاقة غرامية . هناك بلا شك صيغة اخرى ، نعم نحن صديقان ، هذا كل شيء . علينا أن نجد هذه الصيغة . صداقة غرامية ، ربما . .

قالت : الى اين سيفضي بنا كل ذلك ؟ الى لا شيء ، ربما .

كان صمته ، عندئذ ، خيانة أخرى .

هل أنا مجرد رقم في اقتصاديات حسيتك ، يا رامة المحبوبة البعيدة ، معادلة موضوعة بين قوسين في حسابات شهواتك وتطلبات جسمك الملحة ؟ لا ، لست أنا حاصل العملية الحسابية . لن يكون لها أبدا حل ضروري ومحتوم .

فليكن . أليست هبتك لنفسك ، لجسمك المبذول ، حتى في داخل رياضيات الحس المعقدة ، عطية لا تعوض ولا يقارن بها شيء ؟ لماذا تقف مكتوف اليدين أمام العملية ؟ كانت رائعة في بذلها . نعم ، هو مبذول أيضا ، هذا الجسد الطيع المفتوح ، لآخرين ، للآخرين ، مبذول كلما أتى الليل ، تغمره وتعمده ذكورة العالم في نهرها العريض الجاري المتغير الامواج .

كان رفضه صبيانيا ، في نهاية الامر . كان وما زال يطلب المتفرد والمطلق والوحيد . ليس هذا هنا ، على ساحل هذا العالم الذي تشرق الشمس فيه وتغيب . لا لواحد ولا للكل ، لا لشيء ولا لأحد . الشمس ليست قرصا محرقا منحوتا بلا حول في حجر السماء . والليل الاسود يرين وينجاب عن هذا الغمر المجهول أبدا من وحدات لا عداد لها بلا نهاية ولا تميز .

كانت السيارة قد غرقت ، لا تكاد تتحرك ، في سيل ميكانيكي بشري ينحدر ببطء في شارع فؤاد ، دخان العادم وصرخات الابواق المتقطعة والملحاح ، أوكسيد الكربون والشتائم المكتومة من وراء الزجاج ، صفارة سيارة النجدة البيك آب المحملة بالجنود متصلة ، لا تكاد تتوقف ، ولا تعرف مع ذلك كيف تشق طريقها في كتلة المرور المتراصة الزاحفة ببطء ، ولا تصمت . قال لها : ماذا يحدث ؟ فلم تجب . كانت تقود السيارة الصغيرة ، تدفعها خطوة خطوة ، تنقل السرعة وتفتح وتغلق وترفع قدمها وتضغط ، وساقاها ، تحت الجيب المرفوعة قليلا عن ركبتيها ، على الدواسة السوداء المتربة

المنزوعة قليلا عن ارضية السيارة وعليها بقـايا علبة كبريت وورقة سلوفان مطبقة وممزقة ورماد سجاير وشريط قماش ناصل لا لون له ، ساقها التي الى جانبه قصيرة سمانتها ملفوفه محكمة ، والساق الاخرى تبدو له باطن ركبتها ، تحت الكولان الشفاف الفيراني اللون ، أكثر بياضا بانعكاس نور خلفـي متقطر من نافـذة السيارة ، ساقاها عمودان قصيران مكتنزان في مبنى سري منخفض السقف ، لهما مع ذلك نعومة خاصـة ليست من صدع النحات بل من مس أيدي أجيال من المتعبدين . كانت في السيارة تلك الرائحة من البنزين المحترق واللبن المحترق والتوتر .

قالت له : ميخائيل ، تفتح الزجاج قليلا ؟ ضجيج المدينة يتدفق دفعة واحدة مختلط النبرات والطبقـات والايقاعات ، كالمعتاد أم لعله أكثر قليلا ؟ وعندما وصلا الى ما قبيل الاسعاف ازداد حجـم الضجة فجأة ، واقبلت تجري نحوها ، كأنما تهـاجم مقدمة السيـارة ثم تنحرف ، مجموعة متفرقة من الصبيـة بجلاليب وبيجامات وبنطلونات مفكوكة تتـواثب بين السيـارات المتلاصقة الزاحفة وتتفادى عجـلات « الترولي باس » الذي رفع كتلة جسمه الضخم ثم توقف مـائلا يسـد نصف الشارع . ثم اندفعت اليهما سيارات تأتي مـن منطقة فراغ غريبة غير معتادة في المرور ، تلفّ وتدور بسرعة في الاتجاه العكسي وتكاد تصطدم بالزحف البطيء السيل المرور المنتظم ، وفرقعات حادة من غير بعيـد ، وصرخات رجال تبدو ضعيفة في الضجيج الميكـانيكي المختلط الاصوات ، مظاهرة بعد الاسعاف . ارجع .. ارجعي يا مدام .. مظاهرة .. العساكر تضرب‌الرصاص. وأيد تشور وتلوح وتختفي . اثنان من أمناء الشرطـة يجريان بصمت وانعزال ، كأنهما في تمريـن رياضي ، ناحية الاصوات ، ارتطام زجاج ينفجر ويتطاير وهتافات غير واضحة المعـالم ، وفي لمح البصر ، وبسرعة غير معتادة وخارقة ، كانت سيارتها ترجع الى الوراء فـي حيز ضيق لا يصدق ومستحيل ، وتدور وتمرق مـن بين سيارات تندفع في كل اتجاه ، متعاكسة ومتوازية ومتقاطعة ، عـلى السواء ، بين أنين الفرامل وعويل الابواق ، الى شارع جانبي مترب ضيق الفتحة يتسع أمامها ويدور بين الدكاكين والمقاهي المفتوحة ، والناس تشرب الجوزة على الرصيف ، والتراب فيه بقع مـن مياه راكدة قديمة ، والابواب الخشبية الضيقة عليهـا طبقات جلدية الشكل من التراب القديم ، والشرفـات الحديدية المدورة المائلة التي تكاد تتلاصق ، عليها غسيل منشور في الظلام ، من أمام الكراكيب المألـوفة علب كرتون وصفائح وأخشاب ونفايات البيوت التي لا يهون الخلاص منها ، تتخايل فوق برك النـور من مصابيح الشوارع ، عربات النقلَ الهائلة القديمـة تزحف ببطء طالعة من شارع جانبي تكاد تطبق عليها حيطانه ، وأمام دكان ميكانيكي أرضيته من التراب عليها عدة ومفاتيح وعجلات تقف سيارة مفتوحة الاحشاء تمتد من تحتها ، ولا تـكاد تتبين من تراب الطريق ، ساقان نحيلتـان سوداوان لصبي الميكانيكي ، وجهه مدفون في أسفـل السياره ، وهي تحيد عنهما بسرعة وتتفادى سيـارة النقل الوحشيه التي تغلق عليها الشارع ، واذا همـا بعيدان عن دفء الزحـام والضجيج الودود وأنـوار البقالين والميكانيكية ومحلات المانيفاتورة وعربات‌الخضار، واذا هو يتسم رائحة مياه النيل في العتمـة الفسيحة . وأعمده من الخرسانة نصف مبنيـة تنبت لها فروع شائكة مدببة من أسياخ الحـديد المتلوي ، وأكـوام مصفوفة من الخشب تعلو باهتة عارية العظام ، وقضبان المترو المهجورة تلمع مبلولة في مستنقعات مملوءة بالزلط وبقايا متصلبة من الاسمنت الداكن ، وبنـاء التليفزيون الغامض يبدو شاهقا ، من زاوية غير مألوفـة ، غير بعيد . سماء ليل الشتاء مشتعلة بوهج غريب ، فيـه غيـوم حمراء مصفرة من انعكاس مصابيـح الصوديـوم وايحاء احتراق . وقد اختلطت عليه الاتجاهات ووقـع في سحر هذا الخراب المفاجيء الذي يجري فيـه بنـاء غير مفهوم ومتروك لا يدري أين موقعـه . وتوقفت قليلا ، مأخوذة هي أيضا ، وغامضة ، ووجهها في‌العتمة يضيء بنور مكتوم . قال : نرجع للزمالك ، من هنـا ، كوبري أبو العـلا قريب . قـالت : لا . قال : مصر الجديدة اذن ، على طول ، من على كورنيش النيـل ، ثم شبرا . لا أظن ان هناك شيئا في هذا الطريق .

النافذة أيضا جرح في الحائط الاصم ، لا يندمل. ومن وراء الجراح تضرب دماء المدينة وتتقلب ، بينما هو منفي في الداخل . أوتـار مقطوعة بين الجراح فـي نفسه وهذه النافذة . لا شيء يصـل بينهما . حائط أبيض مصمت ، عليه نور الصباح ، ملاءة ساطعة حـارة مشدودة كأنها على سرير موت أو رخامـة تشريح .. الجسم الخصيب الحي ، الجسم الواحد المتعدد بالآلاف، متضخم مكظوظ ممتلىء بالاكل السحت غليظ جـاف هنا ، وهنا خاسف منحوف ، عظامه صفراء مكشوفـة مرمية على تراب الجوع والصمت ، يمور ويندفع فـي شرايين القاهرة القديمة الشهيدة الملوثة الصابرة الفاجرة البذيئة الصاخبة المتبرجة القاتمـة الوجه المكتومة الانفاس بعينيها المحترقتين أبدا ، يتمدد وينشج ويتشنج ويتهدل ويتورم وينفجر وتتفكك عراه ، يشتعل فجـأة ويصرخ . السيارات تدور بسرعة وصمت.. « ممنوع.. ارجع .. ارجع .. خذ طريق صلاح سالم . من هنـا ممنوع » . أحجار متناثرة وقطع طوب مكسورة في‌وسط الاسفلت وبلورات الزجاج العتيقة تلمع شظاياها الدقيقة حادة الاطراف مبشورة على السواد ، واعلانات معووجة مقلوبة مبتورة ، وأعمدة النور مائلة أظلمت رؤوسهـا المفتوحة المشعة والاسلاك .

في الصباح كانت الاجسام الفتية تتلاصق ببعضها البعض ملهمة بحماسة طفلية وبراءة . وقد لفتوا حول أنفسهم حبلا يجمعهم ويحددهم في اندفاع التمرد المنظم المحكوم بآمال غامضة وهتافات مبحوحة قديمة . الادرع الممدودة المرفوعة سيقان نبات غض تهتز بها رياح التبباب . والفلاحة التي ما زالت ترتدي ملابس القرية الطويلة ، طرحتها الرقيقة النسيج تلف رأسها المعتز الرفيع العنق ، وجلابيتها السوداء ذات السفرة العريضة فيها شق جانبي طويل يكشف عن قميص داخلي خشن باهت الزرقة من كثرة الغسيل ، تسير وحدها بلا اهتمام ، تدعو الله بصوت مرتفع أن يحفظهم لشبابهم وينجيهم من كل رديء ، وهي ماضية في طريقها مشغولة بهمومها كأنها على شط الترعة في البلد .

وفي آخر الليل كانت الشوارع صامتة ، انحسرت عنها الضجة وانقطعت عنها السيارات المتدافعة المرتجفة في طنينها الميكانيكي الخشن . تفحّ بغازات عادمها الحانقة . وقد ظهرت كأنما لاول مرة الاشجار تحت الانوار الكهربائية التي لم تنكسر . ضخمة مورقة لها حياتها الليلية الكثيفة ، والبيوت قد صمتت وأقفلت على أهلها الخائفين قليلا وراء البيبان الموصدة . تتخايل من خلف خصاص نوافذها انوار واهنة .

من عبر النيل الحاضر أبدا في العتمة غير مرئي وغير مسموع خيل اليه انه يسمع ارتطامات مياه اخرى طال بها الحبس ، هدير الجماهير أمواج متلاحقة بعيدة في هدأة الليل . يأتي من الشط الآخر ، يعلو ويهبط في ايقاع يلقي الروع في قلبه ، لا يميز على البعد ما يهدر به ليل الجماهير ، ما ينفحه البركان المكتوم في نفثات مليئة حاشدة مترددة باصرار ، الصوت العميق الاجش من مئات الحناجر يهدد الليل والسماء وحيطان البيوت المسدودة ، وله صدى مرهوب محبوب تغرورق له على رغمه عيناه ويعود به الحال الى امجاد شباب منقض واحباطاته الراقدة في آخر طبقات قلبه الموحلة بالالم والندم .

جرانيت الجسم الشامخ شباب يتحدى ، في أول الظهر ، الذبول والموت ، لا عورة فيه ، يبتسم ابتسامته الغامضة الدائمة . قوي أمام الآلهة لانه منها ، منزوع من بين اعمدته العملاقة النائية في صعيده الحار ، من بين عتمة الشموع ورهبة السكون في زمانه السحيق ، لكي يقوم ، بكبرياء لا ينال منها شيء ، في ساحته المزدحمة الرثة الريفية الشكل بين قواقع طويلة مغبرة من القطارات التي تتلوى زاحفة محبوسة بين قضبانها أو تركن الى موت صديء ، مهجورة . وهو مع ذلك وسط أهله وناسه ، وفوقهم . تدور حوله بلا انقطاع تيارات المرور بأسلاكها وعجلاتها وصريرها كأنها لعبة سخيفه وغائبة في مستوى الحضيض ، وتنطلق صفارات مقطوعه الانفاس وتنطفىء أنوار حمراء وخضراء مبتذلة الالوان في النور المحايد الغامر . الجسم الصخري دائم التبباب ، صولجانه لا ينقضي . أما العالم فينقضي وتبقى ندوب الجروح ندبا فوق ندب يتصلب بها لحم القلب وتنبض الدماء في قشرته بعذاب لا ينتهي .

أجسام رهبانية ممزقة مخذولة جافة لا تعرف نوهج الحيويه الا في سورات خدر الحشيش ولوثات الاجساد النسانيه السريعة الانطفاء ، ولا تنصب عليها المياه . رمال الصحراء القذرة فتات من حبوب الصخور . والقواسة ليست من الجسم ولا من الرمال . في داخل هذا الجسم الذي تثخنه الطعنات ، ولا يموت ، احزان هؤلاء الرهبان عبر صحراوات الاجيال يقهرون شهواتهم العظيمه ويطاون فتوة أجسامهم بأقدام الروح العنيد ، خشنة مشققه . الاطراف المشوقة الحية محاصرة تتوفز من داخل الجرانيت الوردي الصلب الذي لا يقوى عليه الزمن . وعلى صدورهم صلبان ذات اهلة وأشرعة من الذهب والفضة مشغوله منمنمة كأنها المسارج التي تسبح بحمد الله وتضيء بنور الزيتون في محاريب مطرزه بأسماء العزة من الرخام تنمو وتترعرع كأنها ازهار وأعشاب .

جسم المدينة تنفصل عنه تجمعات حائرة مزعزعة القلب تنتظر وتتطلع في فضول قلق مكتوم الفوران . عيون كابية منتفخة من نوم سيىء تلمع تحت غشاوتها أحلام وتمردات غير مفسرة ، في الوجوه المكدودة الضاوية التي تقابل الشمس الشتوية بهمومها الداخلية . والشمس عين مفتوحة ، غير محرقة ، لا تستجيب . نظريتها ثابتة . والخوذات المعدنية المطفأة اللون تلمع في الشمس ، والصفوف الصفراء المضطربة السيئة الهندام تسقط من عربات الشحن بصدمات مكتومة على أقدام نحيلة مدعومة بجلد الاحذية الغليظ الجديد الذي تفوح رائحته . صرخة أمر واحدة ضئيلة مقطوعة : « ارجع .. ارجع » . عجلات المطاط الضخمة تدور ثم تقف ، عالية في وسامتها السوداء تصميم بهيمي . سحابات بيضاء من انفجارات صغيرة الصوت تنطلق من أمامها التجمعات مشتتة بذعر غير محكوم . حوافر الخيل تغوص في الاسفلت الطري . الصدور العريضة الشامخة تحت الوجوه المسحوبة التي لا تفهم الا هيجان الدماء واضطراب الناس وصمتهم المشحون وصياحهم المتناوب ، عليها قامات متوترة ووحيدة وموحشة فوق الرؤوس المتقاربة والتجمعات التي تجري بألف قدم تدوس الاحجار وتتعثر بالاجسام وتذوب في الحواري الامينة المساندة المحطوبة الارضيات بين أبواب البيوت المفتوحة ابدا لانها بلا اقفال وسلالها الضيقة المعتمة ، مخابيء امينة لا تطولها الفرقعات القاتلة . اغطية القماش

ألغليظ من المشمع الاصفر الباهت القذرة اللون متهدلة على هياكل القضبان الحديدية الرفيعة . خانقة فيها رائحة الخشب وجلد الاحذية وزيت البنادق الزخم ورشات رصاص لها صدى في السكون المفاجيء وحفيف الاقدام الكثيرة التي تجري مسموع في شوارع فرغت تماما من ضجيج المرور اليومي الليلي الذي لا ينقطع ، وعيون مفتوحة لا تفهم ماذا جرى ولن تعرف أبدا ، وأنين وأجراس من بعيد ، والنيران في نور الظهر الشتوي حرارتها ضارية ومبرئة ونورها في لون عباد الشمس غير مرئي ، لها فحيح ممتلىء الحلق بثأر لا تسوية له ، بنذر لا وفاء له ، تلعق المباني الحكومية الصفراءالمصنوعة على الطراز البريطاني القديم بحيطانها الجرداء والقضبان الحديدية المتشابكة المربعات في نوافذها المحطومة الزجاج . الحريق يسري فيحطبالقطن الجاف ويمسك بجذور الحلفاء على الفنوات والمصارف ويندلع في الاجران ويصعد له دخان أسود ثقيل ، وخوار الموت من فحل الجاموس المذبوح ، دماء عنقه العريضة تسيل لا يوقفها شيء بصمت وكثافة داكنة الاحمرار علىالتراب المفتت بحبوبه الناعمة نصف السوداء نصف الصفراء . أعمدة الدخان السوداء سامقة ثابتة حريفة الطعم في الافواه الجافة الريق تتصاعد وتتلوى من بينها ألسنة متطايرة حارة لها وشيش ووهج شرير القصد لا لون لها في الشمس . سقوط الابواب وشروخ الزجاج وانشقاق الجدران والجري بالغنائم الرثة الهزيلة ونداءات لا أحد يسمعها . حوافر الخيل تصطفق على البازلت الاسود بايقاع له أصداء متكررة في الشارع الذي خلا من زحمة السيارات وضجيجها المألوف ، تتكون في الجسم الذي يمور عقد جديدة صلبة عنيدة ما تلبث أن تسيل وتذوب في غيامات الغاز المسيل للدموع ، وأمام الصفوف الرفيعة بدروعها وعصيها وخوذاتها عقد صغيرة أخرى سرعان ما تتكون وتتضخم رويدا وتمتلىء بصيحات كأنها انفجارات مرض موجع قديم ، تدفقات مياه عكرة محبوسة تحت القهر والمعاناة وآلام كل يوم التي لا تغير ولا حل لها ، ونباح الرشاشات المتقطع الصدى الذي يبدو لا اهمية له ويترك أمامه أجساما صغيرة تسقط فجأة كأنها أكوام قليلة الشأن من الحزن والهدوم الفقيرة تنقلها الايدي بسرعة الى الرصيف في انتظار رحمة قد تجيء أو لا تجيء . أعشاب رفيعة القامة تنحني تحت الضربة وتسقط أزهار العشب التي لا تتفتح الا سحابة يوم ثم تنقصف . هل تترك وراءها البذور المتجددة ؟ أزهار النار والمرارة التي سرعان ما تنطفيء .

وكأنما ميخائيل يحسّ الجراح والشروخ والحروق في جسمه الضئيل المحدود ، في جسمه الآخر الهائل الممدود المدفون بين أمواج الصحراء وبطن الطين الوثير . التنين يتململ من وخزات الوقع الحاد الذي تتركه سنان الطعنات لو انه نهض برأسه المشتعل العينين وفمه الفاغر ذي الالف سن الذي ينفث ألسنة من نار ، لو انه ارتفع بظهره المكين الوطيد مستندا الى الذيل الشاسع الاطراف المدجج بالحراشف المفتول العضل لاهتزت أعمدة السماء وتزلزل العالم السفلي الراسخ الذي ترتكز عليه الارض السوداء .

هناك ، بين هذه الاجسام التي تستمد من تقاربها دفئا والهاما ينسكب ويفيض عن ضيق مجرى حياتها الرتيب المزدحم . هناك ، بين هذه الاجسام التيتجمعت وتتجمع وسوف تتجمع أبدا في دفعات متراصة لا نهاية لها تهتف بصوت ليس هو مجرد تجميع أصواتها بل يأتي من نطاق آخر ، وتسور بأيد أكثر بكثير من مجرد عدد أيديها ، ترفع الى سمائها فرعونا قديما واحدا متجدد الوجه تفديه بالروح بالدم ، تتشوف خلاصها ، تقدم قربانها صانع المجد مفجر الدماء داعي دعاء السلام ، تجأر أمام أمون كلي القوة كلي العزة مانح الخبز والحب والمغفرة من الذنوب . هذه الاجسام التي تشقّ طريقها نحو الحرية ، نحو الشمس ذات الاصابع الرحيمة القادرة وتعرف بغموض ولكن بتأكيد ان شمسها في داخل قلبها المكنون ، هناك ، معهم ، مكانه وحريته . هناك معهم عرف هذه النشوة ، هذه الخمر التي ليست منالارض ، وهي منها ، هذه الحرارة تتدفق في دمائه كأنها البعث من الموات ، هناك لم يدرك ان صوته قد بحّ تماما وان هذا الهتاف الذي تهتز له ضلوعه انما هو هتافهم الواحد وانه وحده لا صوت له ، هناك في ٤٦ كانت اليد التي ألفت بالقنبلة بعيدة عنه وهي يده أيضا . وهو لم يسمع صوت الانفجار والسيارة الانكليزية التي تنقلب فجأة ، حدأة مضروبة ، غير بعيد عن التمثال البرونزي الداكن الصارم الوجه ، ويقفز منها عسكريان بالشورت الاصفر المضحك قليلا النازل تحت الركبة ، وبأيديهما « التوميغن » قصيرة الفوهة . مشرعة لا تنطلق . ويجريان الى داخل الكشك الخشبي المحاصر قبل أن يلحهما الهدير العميق . أما في صمت الليل الموحش بعد ذلك ، فقد كان لطلقات الرصاص أصداء متضخمة لها رنين أجوف غائر الصدر . هذه الاجسام التي تسقط تحت العجلات منضربات غير مرئية لا يعرف أحد منأين تجيء كأنها فجأة أجسام الرهبانالصحراوية . ذاوية وضامرة ، مهدرة ، مخذولة ، منسية ليست لها الجنة ، متى يأتي الملكوت ؟ من غير مجد ، مرمية على الحصى والرمال تحوم فوقها الحدأ قليلا ثم تنقضّ فجأة من قلب السماء البيضاء المحترقة .

نعم أحبك . ولكن في حبي أيضا خيانة محتومة .

قال لنفسه : هذا الاحتراق الداخلي لا معنى له ، في الحقيقة ، هذا الصمت أيضا خيانة . أنت ، وحدك ، لا صوت لك ، نعم ، أحبك ، وفي ثورة هذا الحب ، هذا الصمت ، نواة الخيانة المحتومة . ليس

شيء محتوم . الجرائم تنسى وتنقضي ، ولعلها تغتفر . تمضي على أي حال ولا يبقى لها أثر . وحتى عظام الضحايا والشهداء تتحلل بلا ثأر ولا عدالة وتذوب فى الرمل والتراب الجاف .

لكن أزهار الثائرين تظل مفتوحة المخالب .

كان قد قال لها : نحن لا نكاد نعرف أحدنا الآخر يا رامة . هناك مناطق كاملة في حياتك ، وفي نفسك ، لا أعرف عنها شيئا ، لن أعرفها أبدا . ومع ذلك ، هناك نوع من الالفة خفي وعميق ومستقر كأنه من قبل بداية الزمن ، يغلب كل غربة ، لا يحتاج لمعرفة .

عند عودتهما في أول الصبح وقفت السيارة أمام اشارة المرور والساحة الصغيرة فيها التمثال المسطح : القطة الكبيرة ملساء الجوانب وجهها خاو ممسوح واليد على رأسها كأنها بلا ثقل ، كأنها ليست هناك ، تقعي بحركة فيها شبهة بذاءة . عسكري المرور العجوز يقف شبه نائم في ملل ، وأمين الشرطة بخوذته البلاستيك الشفافة وثيابه الداكنة المحبوكة ، بين السيارات ، يدور برأسه ببطء وتعال . الرجل ينادي على خرقه الصفراء بلا ملل ولا حرارة ولا ايقاع : « فوط بعشرة ، بعشرة يا فوط » ، وفي يده فوطة نظيفة مفرودة يهزها برتابة، لا ينظر الى أحد .

ومن على الرصيف بجوار عمود النور العالي وبعد الاشجار الكثة الخضراء الغنية ، ترتفع فجأة الى جانبه هذه الشجرة ، جافة ، عارية ، انحسرت عنها الحياة ، لا تنتظر الربيع ، نصبا من الخشب الداكن بشرايينه السوداء ، تلتف أطرافه على بعضها البعض في تصلب ، كأنها نسيت ، من زمن طويل ، الالم الذي مزقها وعقدها وعوجها وطواها ، صراخها جامد أخرس، تتقلص الاذرع، يطعن السماء بأصابع طويلة مسحوبة رفيعة متلوية ، بلا امل ولا يأس (*) .

القاهرة

(*) فصل من رواية بعنوان « رامة والتنين » تحت النشر .

تنويعات

شاكر لعيبي

١ ـ تتويج الحراس

(العين)

في المرايا يرى تمرين على صفحة يستحمان
حارسين يرى يقظين
ترى وجهها السيده
دمعة وصنوبرتين
في المرايا النخاع الصدف
وخفق العصافير في شرفة
في المرايا تضيء النجوم
في المرايا ، المرايا ترى نفسها
العيون تحدّق في بعضها
والطيور تشقّ الهواء بضرب وضرب
في المرايا ، الغريرة تبصر في عينها
تحددها برماد وتغمرها بالسرور
وتعدل حافتها بالقرنفل والنور

(اليد)

أتساءل حينا عن اليد تفتح نافذة في العراء
وحينا عن اليد تعبانة
وعن اليد مرسومة بالغصون
ومبلولة بالهواء

اتساءل حينا
عن اليد في كرنفالاتها :
مرة اذ تجيب الحديد على غيّه
وتشمت جذلانة بالصخور
مرة اذ تمرّ على منجم متخم
وتفكّ خزائنه الوافره

أتساءل مرات
عن ساحرتين
برؤوس خمسه
تكتشفان نواميسا
وتضيئان تضاريسا
وتديران العجله

(الانف)

ها هنا هيكل للهواء المقدس
وهذا المجسّ الذي هو شماسة ورواق وباب
هنا هيكل
لاحتفال الحديقه
واحتراق الثياب
وهذا المجسّ
تلاطفه الريح مثل تويج وآس

(الفم)

للاسفل تنحدر الرمانة ناضجة
ـ أهي الشفة السفلى تتشقق ـ ؟
خطان من الشفق المجروح ارتسما فوق الوجه
هل هو جرح مفتوح ؟
أم كرز ؟
أم زهر مبلول بالجمرة والماء ؟
للاسفل ما زالت تنحدر الرمانة
والكرز المالح ينضج
والصرخة من هذا النفق المعتم تخرج .

(الأذن)

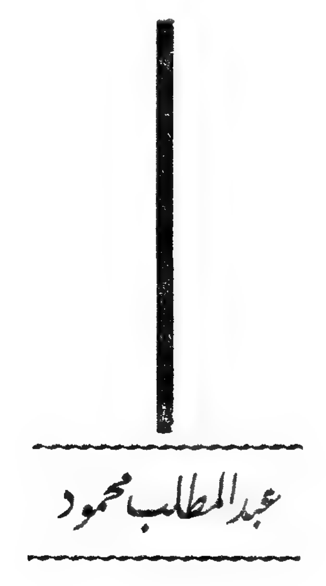
- حجر الصوّان
  يصغي لخطى الريح
- لحشرجة النار
  وتمتمة الحيوان الجريح
- حجر الصوّان
  يندار كرادار في الريح
- يلتقط النأمة والسورات
  ويهتز لصوت الطلقة والتبريح

بغداد

احتمالات

متعب منكِ ، ممتحن بك ، مستوهن الخطوّ ..
لي شجري ، ولكِ الماء ..
لي خبلي ، ولكِ الادعاءات ،
كيف اذن نلتقي ؟!
والسماوات ما بيننا مستحبل
خسرنا به كل ما نتمنى ،
وعدنا ..
شريدين طاردنا الظلّ ،
شاركنا مجلسا متعب الضوء ــ مثلي ومثلك ــ
يا لك من طفلة لا تجيد سوى الادعاء ،
ولا تزدهي بسوى الرغبات القصيّات ..
والمفردات ــ الحجر .
متعب منكِ ، ممتحن بك ،
أنشد من صحوكِ الانفجار ،
ومن كذبكِ الصدق ،
من رملَ صحرائكِ الماء ، ·
انشد من غيمة في قميصك بعض المطر .
فلي شجر .. مبتلى بعناء الاقامة في ضفتيكِ ،
تنازعه فيك هذي الظلال ،
وتأخذه من يديه القصائد ،
تأخذه من يديه .. وتتركه عاريا ،
قلبه مسكن للهدوء ،
وأضلعه مركب للخطر .
فعلام ــ ترى ــ تطلقين العصافير في رأسه ؟!
وتفرّين ..
تاركة فيه بعض بقاياك ،
بعض الجنون ؟!
وماذا ــ ترى ــ تبتغين ؟!
غير أن يصطلي باحتمالاته ،
ويراهن .. انك مجنونة ،
ويداهن أسراره ،
ثم يخسر ..
كم مرة سوف يخسر ؟!
كم .. سيظل يغالب فيك الهوى والضجر ؟!
انــه شجري ،
وأنا متعب منك ، ممتحن بك ، مستوهن الخطو
في ضفتيك ..
وكل الشواطىء بعدك مقفرة ،
والقصائد .. باهتة ..
غير انك لا تملكين اختياراتي الغائمه .
فاطلقي كل ما تستطيعين ،
بيني وبينك ظلّ يطاردنا ،
مجلس شاركتنا به كل هذي الهواجس.. والامنيات.
كيف تنفلتين لوحدك ،
تاركتي موثقا بالقصيده ؟!
والارض ما بيننا مستحيل ،
ووحشة قلبي صحراء تصفر فيها الرياح ..
فمن أيّما وجهة تتوهج هذي الرؤى الهائمه ؟!
ومن أيّما وجهــة تشرق الاغنيــات ؟!

بغداد



الشاعر الانكليزي كولريدج

بقلم بدر توفيق

يعتبر الشاعر الانكليزي صامويل تيلور كولريدج واحدا من كبار رواد الحركة الرومانتيكية في تاريخ الشعر الانكليزي (١٧٨٩ ـ ١٨٣٠) . ولد سنة ١٧٧٢ في قرية بمقاطعة ديفون بانكلترا حيث كان أبوه يعمل ناظرا لمدرسة القرية وقسا لكنيستها الصغيرة .

كان كولريدج في طفولته منطويا على نفسه متأملا مفكرا حالما ، وكان باعتباره أصغر الابناء وابرزهم ذكاء . أكثرهم قربا لقلب أبيه الذي مات عندما كان صامويل في عامه التاسع ، وفي العاشرة ذهب الى لندن حيث أتم دراسته التي اهلته للالتحاق بجامعة كمبريدج لدراسة اللاهوت ، وقد شملت الدراسة أيضا الرياضة والادب الكلاسيكي ، وعرف كولريدج في تلك الفترة بالقراءة المتسعة وحب النقاش والجدل ، فكانت غرفته بالكلية منتدى للاصدقاء . ومما هو معروف عنه أيضا ـ في تلك الفترة الاوربية المشغولة بالثورة الفرنسية ـ معارضته لفكرة اعلان انكلترا الحرب ضد فرنسا .

لم يكد ينقضي عامان على التحاق كولريدج بالجامعة حتى هجرها ورحل الى لندن حيث اضطره العوز للالتحاق بالجيش الذي خدم به جنديا لاربعة شهور لم تغنه ولم تفقده شيئا ، وبعد عناء بالغ وافقت السلطة على تسريحه من الجيش . فعاد الى الجامعة . وفي صيف نفس العام ١٧٩٤ سافر كولريدج الى اكسفورد حيث تعرف على الشاعر « روبرت صذي » الذي كان يدرس بجامعتها ، وكانت لهذه المقابلة آثار حاسمة وعميقة في حياة كولريدج ، فقد كان « صذي » سببا مباشرا في تعرف كولريدج على (سارا فريكر) أخت خطيبته التي تزوجها كولريدج فيما بعد وأنجب منها ولدين وبنتا . وبصحبة صذي توصل كولريدج الى فكرة البانتيسقراطية ، فأجمعا الرأي بذلك على تحقيق حلمهما باعتزال المجتمع والحياة من أجل الانتاج الادبي فقط بمكان ناء في أمريكا . وقد تجمع حول صذي وكولريدج مجموعة من الاصدقاء تضم اثني عشر رجلا وزوجاتهم ، قرروا اقامة مدينة فاضلة يعمل الرجال فيها بالزراعة بضع ساعات يوميا ، ويخصص الوقت بعد ذلك للدراسة والمناقشات وتعليم الابناء وتحقيق مجتمع مثالي قائم على انعدام الملكية الفردية والمساواة وتقديس حرية الفكر والعقيدة والرأي .

وهكذا هجر كولريدج الجامعة للمرة الثانية لتحقيق فكرته ، وبدأ يجمع المال اللازم للسفر ، ولكن حماسه بدأ يتناقص بعدما تبين انحراف صذي عن قواعد البانتيسقراطية عندما أراد اصطحاب أمه وخادمه ، ثم فشل المشروع وتفرق الاصدقاء .

التقى كولريدج في أعقاب تلك الفترة بالشاعر وليم وردزورث . وفي عام ١٧٩٨ أصدرا معا ديوانهما الاول بعنوان « قصائد غنائية وقصصية » . وقد كانت لهذا الديوان اهمية كبرى في تطور ونمو الشعر الانكليزي بعدهما . وفي العام نفسه رحل كولريدج بصحبة وردزورث وشقيقته الى المانيا حيث التحق بجامعة جوتنجن ليتعلم الالمانية ويستمع لمحاضرات الفسيولوجي . كما قرأ في ذلك الوقت أعمال الفيلسوف الالماني (كانط) ، ثم عاد لانكلترا سنة ١٧٩٩ مثقلا بالديون حيث اتجه لدراسة الفلسفة وبوجه خاص سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) .

عندما بلغ كولريدج نبأ مرض وردزورث ، اتجه الى منطقة البحيرات بشمال انكلترا لزيارته حيث التقى هناك بشقيقة خطيبته (سارا هتشنسون) ، وكانت فتاة مثقفة ، محبة للشعر ، أحبها كولريدج بجماع قلبه ، وبذلك امتدت فترة اقامته في منطقة البحيرات ذات المناخ الرطب الذي لم يكن ملائما لما يعانيه من آلام الروماتيزم ، فساءت حالته الصحية في نهاية عام ١٨٠٠ ، وتورمت أصابعه وركبتاه ، وتشوه جسمه وتضخم ، فلجأ الى الافيون لتسكين آلامه المتزايدة حتى صار الى حالة من الادمان تثير الانزعاج ، لكنه رغم كل شيء كان يحس ويرى عالما كاملا من الخيال الساحر بتأثير الافيون ، الذي أسرع الخطى بصحة كولريدج نحو التدهور ، مما جعله في سنة ١٨٠٤ يرحل الى جزيرة (مالطا) ملتمسا الدفء ، حيث قضى عاما ، ثم عاما ونصف العام في طريق العودة المرتبك بالحرب من ايطاليا الى انكلترا . حول ذلك الوقت كان الشعر قد هجر كولريدج ، وكان كولريدج قد كرس نفسه لسلسلة من

المحاضرات العامة عن الشعراء الانكليز وعـن المسرح ، وأصدر مجلة بعنوان « الصديق » لم تنتظم لاكثر مـن عام واحد . واشتغل فترة من الوقت معلقا سياسيا باحدى الجرائد .

وفي عام ١٨١٦ ساءت حالة كولريدج ، فعرض نفسه على طبيب أحاله الى طبيب آخر يدعى (جلمان) ، وقد أحبه هذا الطبيب منذ الوهلة الاولى ، فاستقر بذلك مقام كولريدج تحت الرعاية الطبية في منزل جلمان حتى توفي عام ١٨٣٤ ، وقد اتضح بعد ذلك ان سبب الالم الذي أصابه حتى الموت كان مرض التضخم في القلب .

هذه بايجاز شديد قصة حياة وموت كولريدج ، الذي قال عنه صديقه الحميم تشارلس لام : « لم أر شبيها له أبدا ، ولا يحتمل أن يرى العالم مثله مرة ثانية » .

كتب كولريدج قصائده بين السادسة عشرة والثلاثين من عمره ، وجميعها تشير صراحة الى تجربته الشعرية وموقفه من الفن والحياة . من أعلى تلك القصائد شأنا رائعته المتفردة « البحار العجوز » ، أما قصيدته « الكآبة » ، التي كتبها عام ١٨٠٢ ، فان عنوانها يعطينا على الفور انطباعا واضحا يساعدنا على التعامل مع الرموز التي يستخدمها خلال قصيدته ، والتي تصور مناخه العقلي ، وتشكل دلالتها بالنسبة له نوعا من التأريخ لصعوده الى سماء الشعر وهبوطه الى أرض النثر .

والقمر ، في شعر كولريدج ، واحد من أقوى الرموز وأكثرها اشارة ، وايحاء ، واظهارا لصراعاته النفسية ، ولقد كان القمر في قصيدة « الكآبة » هو البركان المقدس الذي أضرم نيران اللوعة والتأمل والاحزان الغلابة في وجدان الشاعر ، فقد أثارت رؤيته تذكار مقطع شعر من قصيدة قصصية لواحد من الشعراء الجوالين القدماء عن (السير باتريك سبنس) في الليلة التي كتب فيها هذه القصيدة ، فنراه وقد وضع ذلك المقطع في المقدمة قبل أن يضع الرقم (١) مبتدئا بعده أول سطر من سطور « الكآبة » .

أما « قيثارة الريح » فهي من الرموز ذات الدلالة الهامة في الوجدان الرومانتيكي عامة ، لانها تجسد العلاقة الغامضة بين الشاعر والحياة ، فهذه الآلة الموسيقية الوترية ، يشيع تعليقها خارج شرفة المنزل الانكليزي ، حتى اذا لامسها الهواء أو هبت عليها الريح صدرت عنها أنغام مختلفة بقدر اتجاه الهواء وسرعته ، وتتضح هذه العلاقة في قول الشاعر « شلي » المعاصر لكولريدج : « ان الانسان أداة تساق اليها سلسلة من المؤثرات الخارجية والداخلية كتبدلات ريح دائمة التغير على قيثارة هوائية تدفعها بحركتها الى نغم دائم التحول. ان قيثارة الريح هي الشاعر ، والقصيدة هي النغم الموسيقي المتآلف الناتج من تأرجحات العناصر الخارجية والداخلية لكل من الريح المتغيرة وتكوين الاوتار وتوترها » . فاذا انتقلنا بهذا الايضاح الى قصيدة كولريدج ، استطعنا أن نتبين العلاقة الخفية الحميمة بين الشاعر في اشارته لنفسه وتعبيره عنها باستعارة صورة العلاقة بين الريح والقيثارة ، ثم أزمته الفنية الخاصة وهي اضمحلال قدرته على التخيل التي يعتبرها ينبوع الشعر الرئيسي . ويدخل بنا كولريدج الى صميم مشكلته باعادة تقديم الصورة الشعرية القديمة فيحكاية (السير باتريك سبنس) ، حيث يظهر القمر القديم واقعا مرئيا قاسيا في حضن القمر الجديد ، انها صورة تثير التشاؤم حقا تلك التي يظهر فيها القمر الجديد أو الوليد الواعد ، وبين ذراعيه القمر القديم أو التالف المستهلك :

في ساعة متأخرة من الليل
في آخر الليلة الماضية
رأيت القمر الوليد
يحتضن القمر البائد بين ذراعيه
ولهذا .. أيها الربان العزيز
لشد ما أخشى
تلك الانواء والعواصف القاتلة
في أعالي البحار
التي ينتظر أن نلقاها

أن هذا الالتحام الوثيق بين القمرين ، يعكس لنا ذلك التناقض المرير في عالم الشاعر الباطني والذي يتشكل منه صلب موضوع قصيدة « الكآبة » ، وبذلك يضعنا كولريدج داخل واقعه الذي يعانيه ، وهل هناك الشاعر مصيبة أفدح من فقده قدرة الخلق والابداع ؟ ذلك هو ما أصاب الشاعرين الكبيرين كولريدج ووردزورث في تلك الفترة من حياتهما . وبينما استطاع وردزورث أن يصمد للازمة لما كان يتمتع به من قدرة على التماسك ومواجهة الصعاب ، نجد صاحبه كولريدج ينهار الى حد كبير تحت هذه الوطأة ، فقد كان شديد الحساسية بالاضافة الى ما ساقته اليه ظروف حياته من زواج فاشل لا مفر منه ، وحب جياش لسارا هتشنسون ، التي كان بامكانها تغيير مقادير كولريدج تماما لو انهما تزوجا .

وقد تشكلت قصيدة « الكآبة » من سطور رسالة شعرية طويلة (٣٤٠ سطرا) أرسلها كولريدج الى سارا هتشنسون ، أما النص الذي اختاره الشاعر فيقع في ١٣٩ سطرا فقط . وينقسم الى ثمانية أجزاء يسبقها جميعا مقطع شعر قديم من قصيدة قصصية عن السير باتريك سبنس أحد قباطنة البحر الانكليز الذي غرقت سفينته في نهاية المطاف . يوحي كولريدج الينا بذلك

ان سفينة حياته تتجه أيضا الى النهاية الفاجعة نفسها ، فيها هو البحار المكلف بمراقبة البحر وأحوال الجو المؤثرة على الملاحة . يتجه الى غرفة القيادة ليخبر ربان السفينة السير باتريك سبنس بما رآه في الليلة الماضية ، وهي مشاهدة تدفعه الى التشاؤم وتوقع العواصف القاتلة ، فلقد رأى القمر الجديد وبين ذراعيه القمر القديم ، فاذا عرفنا ان القمر عند كولريدج يرمز الى روح الخيال الخلاق وان رؤيته في صورة مضمحلة بين ذراعي القمر الجديد تعني موت الخيال المبدع . أدركنا عناية كولريدج الخاصه بوضع هذا المقطع كمقدمة لقصيدته ليبدأ بعد ذلك الجزء الاول منها بالتعليق على ذلك المقطع ، مدخلا القارىء الى عالمه الذي يرمز فيه القمر الى روح الخيال المبدعة ، وترمز فيه قيثارة الريح الى عقل الشاعر ووجدانه ، بينما ترمز الرياح الى مقدرات العالم الخارجي التي يؤثر هبوبها على أوتار القيثارة فتصدر عنها نغمات النفس الشاعرة بكل ما يعتمل فيها من خواطر ورؤى وتأملات . ولكن هذه الصورة في مجموعها تثير الالم الكامن في نفس الشاعر وتجعله ينبض بالحياة كما يقول في الجزء الاول من القصيدة :

ما أخطر هذه النبوءة
فلو كان الشاعر القديم الذي كتب هذه القصيدة
عن السير باتريك سبنس
ممن يستطيعون التنبؤ بتغيرات الطقس
فان هذه الليلة ، رغم الهدوء الذي يبدو عليها ،
لن تنتهي دون أن تهزها الرياح
التي تفرض على البحارة عملا متصلا وجهدا كبيرا
لا تلك الرياح التي تجمل من السحاب البعيد
شرائح كسولة
أو ذلك النسيم المترنح الذي ينشج ويئن
ثم يتجمع على أوتار هذه القيثارة الهوائية
التي يكون صمتها فيهذه الحالة أفضل من صوتها .
من أجل من يا ترى ،
فتنة هذا القمر الشتوي الوليد ،
وقد سبحت أشباح ضوئه .
وانتشرت مؤطرة بدوائر من الخيوط الفضية ؟
اني أرى القمر البائد في حضن القمر الوليد
منبئا عن المطر الآتي
وعن هبوب العاصفة المحملة بالامطار .
أواه من تلك العاصفة التي ما فتئت تحتشد
ومن هطول وابل المطر الليلي
الذي يدوي في اندفاعه السريع
بهذه الاصوات التى طالما أيقظتنى وامتلكت وجدانى
وطافت بروحي بعيدا عن الوطن
هل تعيد هذه الاصوات الى روحي
نبضها الذي تعودت عليه ؟
وعل تقضي على هذا الالم الغامض في صدري
فتحرك روحي وتبعث فيها الحياة ؟

ويصور الشاعر في الجزء الثاني من القصيدة حزنه الفادح . لقد كان المساء مديدا وصافيا ، والنجوم تسبح خلف السحب الرقيقة أو بينها ، والهلال ثابت في بحيرته الزرقاء ، والشاعر يبصر كل هذا المشهد البديع الخلاب ، لكنه للاسف يبصره فقط ولا يحس كم هو جميل :

حزن عقيم معتم موحش خاو من الالم
حزن مكتوم منوّم بلا عاطفة متقدة
لا يجد منفذا طبيعيا ولا انعتاقا
في كلمة أو تنهيدة أو دمعة .
آه أيتها السيدة
في هذا الجو النفسي الذي يثقل القلب
بالتعب والقنوط
وقد شدني غناء طائر بعيد الى أفكار أخرى
كنت أمعن النظر في الجانب الغربي للسماء
في خبيئتها النادرة ذات اللون الاصفر الممتزج بالاخضر .
طوال هذا المساء المديد بكل ما فيه من عطر وصفاء
وما زلت أمعن النظر بعين لا أجد مثيلا لخوائها .
هذه السحب الرقيقة في الاعالي وقد انشطرت مزقا وخطوطا
تتجه حركتها بعيدا الى النجوم
تلك النجوم التي تبدو منزلقة من خلفها أو فيما بينها
تلتمع مرة ، ومرة يصيبها الاعتام
لكنها تظل في مدى الرؤية دائما
وعلى البعد يبدو القمر الذي ما زال هلالا
يبدو ثابتا كأنه نما في بحيرة زرقاء
خلت من السحب والنجوم
اني ارى هذه الروعة بأكملها .
اني أراها ، لكنني لا أستطيع ان أسبر أغوار هذا الجمال .

وفي الجزء الثالث ، يتساءل كولريدج ــ وهو يبحث عن خلاص لذاته المقهورة المكتئبة ــ تساؤلا يحتوي الجواب في صميم السؤال :

ان قوتي الروحية الخلاقة تخذلني
ولكن ، ما الذي كان بوسعها أن تفعل
لتزيح الحمل المتكاثف من فوق صدري ؟
سوف يكون جهدا عقيما
حتى لو أمعنت النظر الى الابد
في ذلك النور الاخضر الذي يهيم في الغرب :
يجب الا انسج من الاشكال الخارجية أملا
لأفوز بالحب وبالحياة
لان ينابيعها تكمن في أعماقنا .

وفي الجزء الرابع يعود كولريدج لمخاطبة محبوبته سارا ، في تأملات مريرة يحاصرها الشجن من جميع النواحي :

يا سيدتي نحن لا نتلقى الا ما نهب
وفي حياتنا وحدها تحيا الطبيعة
ان ثياب عرسها هي ثياب عرسنا
واكفانها اكفاننا
فهل ستسمح الطبيعة لنا بشيء نراه
اكبر من هذا العالم البارد الذي لا حياة فيه
والذي اعد للجماهير الفقيرة الدائمة القلق
التي لا تعرف الحب .
آه .. ان الروح ذاتها هي التي يجب أن ينبع فيها
نور ومجد وسحابة جميلة مضيئة
تغلف الارض
فالصوت العذب القوي لا ينبع الا من الريح
فهو وليدها
وهو حياة الاصوات العذبة جميعا وروحها .

هكذا تتضح فاجعة الشاعر التي أسلمته الى الحزن الموحش والاكتئاب العقيم ، لقد ذبلت بداخله روح خياله الخلاق ، فانطفأت الشعلة التي كانت تكشف له الوجود وتجعله يحسّ بما يشاهده في الطبيعة كشاعر وليس كفرد عادي من (الجماهير الفقيرة الدائمة القلق والتي لا تعرف الحب) ، وهي الصورة الوحيدة التي تقدمها الطبيعة لنا اذا خلت نظرتنا الى الاشياء من الروح المبدعة التي تخلق معنى انسانيا للكائنات المختلفة ، وتعطيها أفراحها وانغامها وموسيقاها . وها هو كولريدج يهمس في اذن سارا بكل تلك المعاني في القسم الخامس من القصيدة :

يا ذات القلب الصافي ،
أولست بحاجة الى سؤالي ..
عن سر تلك الموسيقى الاخاذة
التي تستوطن الروح ؟
اولست بحاجة الى سؤالي عن حقيقة هذا الضوء ،
وهذا المجد ،
هذا الغمام البديع المضيء ،
وهذه القوة الجميلة التي تصوغ الجمال ؟
انه الفرح .. أيتها السيدة النقية
انه الفرح الذي لم يحظ به قط احد
سوى الطاهرين في أنقى ساعات حياتهم
انه الحياة في أنقى ساعاتها
انه الحياة ونعيمها
انه السحابة والمطر معا
فالفرح يا سيدتي هو الروح وهو القدرة
انه مهر الطبيعة لعشاقها
انه أرض جديدة وسماء جديدة
لا يستطيع أن يحلم بها لا الشهواني ولا المتكبر
الفرح هو الصوت العذب
الفرح هو السحابة المضيئة
فنحن عندما نفرح
تتدفق الحياة في أعماقنا بكل ما يسحر السمع والنظر
فتصبح كل الانغام الشجية أصداء لصوت الفرح
وتصير كل الالوان اشتقاقا من ذلك النور

وينتقل كولريدج في الجزء السادس الى مناجاة عذبة موحشة يعرض فيها انتقاله من حالته الاولى التي كان يعيش فيها بروح الخيال المبدعة ، ذلك السر الذي يمنحه الله الشعراء منذ مولدهم ، الى الحالة الراهنة بعد أن حنت الآلام رأسه الى الارض . وتنتهي هذه المناجاة نهاية خافتة يائسة تعيسة :

لقد عشت حينا من الدهر
كنت فيه – رغم مصاعب الطريق –
أستخف بالبؤس والتعاسة
حتى كنت أتخذ من سوء الحظ وعثرات الطريق
مادة أقيم منها بخيالي حلم سعادتي
لان الامل وقتئذ كان ينمو حولي كالكرمة الملتفة
كما كانت الثمار والاوراق
تبدو ملك يميني وان لم تكن ملكي
أما الآن ، فان الاحزان تحني راسي الى الارض
ليس المرح السليب هو ما يهمني أمره الآن
فكل زيارة من هذه الاحزان
تشلّ جميع ما منحتنيه الطبيعة عند مولدي
تشلّ روح خيالي الخلاقة
فهل أقوى على عدم التفكير في مشاعري
وان يكون الصبر والسكوت هو الشيء الوحيد المستطاع
حتى أتمكن يوما بالبحث المبهم الشاق ،
ان أسرق من طبيعتي الخاصة جوهر انسانها الطبيعي ؟
لقد كان هذا ملتجئي الوحيد ،
وخطتي التي لم أجد سواها
حتى تصيب الكل عدوى ما يلائم الجزء
وهذا في اعتقادي هو ما اشتد عوده ونما
حتى كاد أن يصبح للنفس عادة وطبيعة .

واذ يتأكد كولريدج من هذا السقوط في ظلام اليأس والتعاسة الشاملة ، نجده في الجزء السابع وقد انتفض في محاولة لاسترداد كل ما سلبته الاحزان والآلام والبلايا ، شاهرا سيفه في وجه الافكار السامة التي تحكم نسج حبالها الخانقة حول عنقه ، مصغيا للرياح التي ظلت تصخب طويلا دون أن يعيرها انتباهه. بهذا يحاول الشاعر أن ينتقل من عالمه الداخلي الى العالم

الخارجي الذي يرمز اليه بالرياح . لكنه سرعان ما يرتد ملتفتا الى القيثارة . قيثارة الريح ، ذات الشاعر ، تلك التي طال عذابها وعلا صراخها بفعل الريح ، فيضن بها.. ويحرص عليها . ذلكم هو الصراع القاسي الذي عاشه الشاعر ، والذي ذكر في نهاية هذا الجزء بقصيدة « لوسي غراي » لصديقه الشاعر وردزوورث عن الطفلة الصغيرة (لسي) التي ضلت طريق بيتها ، فجلست تئن حينا بصوت منخفض حزين مرير خائف ، وحينا تصرخ بصوت عال لعل أمها تسمعها فتخف الى نجدتها :

ابتعدي ايتها الافكار السامة التي تلتف حول عقلي.
يا حلم الواقع المظلم
اني اوليك ظهري ،
وأصغي للرياح التي طال عصفها، وغاب عنها انتباهي
يا لها من صرخات شقاء يطيل أمدها العذاب
تلك التي يتعاقب صدورها من هذه القيثارة
أيتها الرياح التي تصخب في الخارج
لشد ما أعتقد ان أنسب آلات العزف التي تروق لك
هي الصخرة العارية
او البحيرة الجبلية الصغيرة
او الشجرة المصعوقة
أو دغل الصنوبر الذي لم يصل اليه أحد الحطابين
أو البيت المنعزل الذي يعتقد الناس انه مسكون بالاشباح .
أيها العازف المجنون
يا من تقيم عيدا للشيطان في شهر المطر
شهر الحدائق المحملة بالثمر
والازهار التي تتفتح
ان احتفالك أبغض من الاغنية الشتائية
بين الزهور والبراعم والاوراق المتموجة
أيها الممثل ،
يا من أتقنت المشاهد المأسوية بأجمعها
أيها الشاعر الجسور ،
يا من بلغت شجاعته حد الجنون
سيرة من هذي التي تقصها الآن علينا ؟
انها عن الصخب الذي يصدر عن جيش يولي مندحرا
في دروب الهزيمة
بأنين الرجال المسحوقين تحت الاقدام
بجراحهم المؤلمة
انهم يئنون من الالم
في نفس اللحظة التي يرتعشون فيها من البرد
ولكن ... صه ...
هناك لحظة من أشد لحظات السكون عمقا
فكل تلك الضوضاء التي تشبه صوت الحشود المندفعة
بالانين والرعدات المرتجفة
تصل الآن الى نهايتها
انها تقص حكاية اخرى بأصوات أقل عمقا
وأقل ارتفاعا
حكاية أقل اثارة للمخاوف
يخفف السرور وقعها قليلا
مثل الاغنية الحنون التي كتبها « أوتواي »
عن الطفلة الصغيرة التي ضلت طريقها
ولم تكن على مبعدة من بيتها
عندما وجدت نفسها في منطقة مهجورة
فظلت تئن بصوت خائف خفيض حزين مرير حينا
وحينا ترفع صوتها بالصراخ
وكأنها تأمل أن تسمع أمها صوتها المستغيث الباكي.

بذلك ننتقل للجزء الثامن والاخير من قصيدة كولريدج المقبضة عن الكآبة ، فنسمعه يناجي حبيبته سارا موجها لها حديثه الاخير ، داعيا لها بالفرح والسعادة ، وألا يعذبها السهاد بمثل ما يعذبه ، وان يعرف النوم الرقيق طريقه الى عينيها ، وان تتألق النجوم فوق مسكنها :

انه منتصف الليل
لكن ليست لدي رغبة في النوم
ليحم الله صاحبتي من الاصابة بمثل هذا السهاد
ألا فلتزرها أيها النوم الرقيق بأجنحة الشفاء
وعسى ألا تكون هذه الزوبعة سوى مخاض جبل
ألا فلتتألق كل النجوم فوق مسكنها
وأن تظل ثابتة كأنها تراقب الارض النائمة
لعل حبيبتي تصحو من نومها
بقلب لا يضنيه النهار
وخيال مرح
وعيون ملؤها البشر والسرور
وليكن لروحها أجنحة من الفرح
ولينغم الفرح صوتها
ولتكن من فيض روحها الفياضة بالحياة
حياة كل الكائنات
من القطب الى القطب
أيتها الروح الرقيقة المتواضعة
يا من تهدي خطاك السماء
اني أدعو لك دائما
بالبهجة الغامرة
والسرور
والفرح المتكاثر
الى الابد .

(القاهرة)

من أحزان أبي حفص

نشأت المصري

● شرائح :

عيونك تشخص عبر الحصى ، تستريح عليه دموع المساكين .

.. يجتر ما خبأته لغات السكون

ويستر جذوة حب تجاهلت الخيل أعراسها

عيونك تضغط بوابة القصر..ترهق أسواره المشرعات:

ـ فماذا عساك رأيت فأيقظت في الارض ديدانها

ـ رأيت فلول الغواني يجددن سيقانهن

ويدهن بالمسك أدرانهن ..

وفي قاع مدفأة العاشقين احتضار حديث قديم :

(أتعبت البغل .. ارحه ثلاثة أيام

ليهز الذيل ، وينعم بالاحلام)

● نشيد الاحزان :

أقاتل حزني ليفترش القلب حزن جديد

فحزني زنيم يكبل وجه الرحيق الوليد

وصدري مغارة عصف البلى

أقاتل حزني لأصبح دمعة عينيك خلسه

فحزنك ينسج فوق الجراح الورود ،

.. فينبجس الجرح عطرا ..

وينتبه الحب بين الجذوع فيطرح تمرا وبشرا .

● العائد .. والعيد :

وتلفح آهات ليلك صمتي ..

وأنت تفتش بين الصدور عن الخاطر الحي تنقده حزنك العبقري وترفعه من ثنايا الصراصير والعنكبوت وتمسح عنه طحالب مجدورة بالوعود وأضغاث معبودتي شهرزاد ...

.. تصفق أجنحة الفجر ان شاع فينا جحيم نبالتك المستعاد ...

.. وترتجف الريح عند مشارفنا تسأل الخاطر الحي ـ ان عاد ـ من أي فج أتيت ؟ وكيف عبرت لصوصا من الجان تجهض من رحم الضوء ضوءا بعيدا ...

وأذكر انك أهديتنا من حقولك أغلى شجيرة حزن ، على متن أوراقها الكلمة الكنز (رحمه) ومعذرة أيها اللغز (رحمه) : خلت من معانيك كل القواميس ، أفتوا بأنك شيء من السحر واختير يوم اغتيالك عيدا ...

● الفصل قبل الاخير :

ثلاثون شهرا وأنت تمارس طقس الفلاحة . تزرع في كل ثانية بسمة تتنمى على أوجه القوم ، ترسم في الطين جنه .

ثلاثون شهرا ..

وأنت الذي تشتري الحزن بالبيت . باللقمة المشتهاة ، بزاد الاجنه

وأنت الذي يشتري الحوف بالسهد . والموت بالصفح . يسقط عند رؤاك الحلك

وأصبحت هذا الحزين الوحيد ببحر الضحك

وقد كان ما شئت لك ..

فيحتضن الشاة ذئب .. ويرثيك جن ويأسى ملك

... هنيئا لك السم يا عاشقا للفداء ...

دماؤك للآخرين طريقان .. فوق التراب ، وفوق السحاب

وينفض سامرك المستطاب

يعود شراب الملوك عصير العيون العطاش ،

وتحلم أمعاؤهم بالاحبه

وللسوق فخذان بينهما تتماوج رغبه

وتسكن فوق الصدور طيور الحداد

وحزنك لا يجد القلب فينا فيهرع منا اليك

فأين رداؤك .. ننشره راية في محيط الجنون على جثة الزمن المستباحه

... أتبكي وعيناك فوق السطور الذبيحه ..

لأني أجيد الكلام ولست أجيد الفلاحه ؟!

رداؤك قلع لما فات .. أعرف

وجنتك امتشقتها الصحارى وأحرفك اليوم تنزف .

وأعرف انك لست تجيء

وكعكة « سوف » التي أشبعت جوعنا

نغني لها في الصباح ونجدل الحاننا في المساء

وأنت ـ على أحسن الظن ـ نادرة في كتاب

وحينا ـ ويا خجلي ـ نكتة في ليالي الصحاب

وفي قاع مدفأة العاشقين رماد نداء :

(تثقل بالاموال خزائننا .. اين الفقراء ؟!)

القاهرة

أنتِ...

يا سيدتي المختارة

جواد الزبيدي

آلاف الزنج قديما ماتوا في البصرة ..
غرقى مذبوحين بسيف الجلاد ..
ومرّت أيام الموت ..
والزنج تموت بلا رحمة ..

●

يا سيدتي المختارة من دون الخلق ..
عطاشى نحن ..
هل في فيئكِ شربة ماء ؟
طعنة خنجر ؟..
ورد أسود ، أم اطلاقة رحمة ..

●

تهدم أسوار « المختارة » (١) ..
فوق رؤوس الملعونين ..
وليحرق تاريخ السلطان
تتعانق أجساد الزنج ..
ببطن اللجة ..
يا ماء البصرة كن ملحا
يدبغ جلد المصلوبين ..

●

أنتِ قلبت موازين المألوف
سيثور السادة ..
وتعلو غوغاء الشارع
ويرمى بيتك بالعرادات
يسيل عليه رصاص ذائب ..
فيكون اليوم المشهود ..

●

يموت الليل بأعماقي
لولا اشعاع منك ..
ينفذ من خلل القضبان ..
بين سعيفات النخل ..
يتعانق مع صوت الزنج ..
جياع نحن ..
فهل من آكل غير (سويق (٢) السادة) ؟

●

سيدتي المختارة رحماك ..
فأنا ما زلت سجينا
بين البصرة والقرن الافريقي
حي الزنج ومقهى « هارلم » (٣)
لكن أنتِ
يا سيدتي المختارة من دون الخلق ..
قلبتِ موازين المألوف .

المجر الكبير (العراق)

---

(١) المختارة : كانت عاصمة علي بن محمد صاحب ثورة الزنج .
(٢) السويق : وجبة فقيرة كانت الطعام الوحيد للزنج تتكـون من الدقيق والتمر .
(٣) هارلم : حي الزنوج في نيويورك .



الزّجاج

لطفيّة الدليمي

في المدن يضعون الواح الزجاج اللامعة على النوافذ وواجهات الابنية وحواجز عيادات الاطبـاء والمطاعم . وهناك ، لهذه الاغراض أو لغيرها ، يستعمـل زجاج يشفّ عما وراءه دونما عناء أو قصد ، وهو نوع مـن الزجاج لا يثير شيئا من الضيق في النفس ، وينسـاه المرء ولا يعـود يفكر بأمره ، بلَ يعتبره جزءا من عالم مسلّم به ، ويوحي لنفسه بأنه موضوع هكذا في اماكنه، منذ الازل ، كالاشجار المعمرة او التلال او الانهار .

وثمة زجاج معتم ترى ما وراءه ولا يسمح لاحد أن يراك . هذا الزجاج المخادع ، هو زجاج للعيون المتلصصة الحذرة ، للمتابعات غير المشروعة او المشروعة على حد سواء . يستر عري النفوس الخـائفة والنفوس التي تجابه دناءة أن تتلصص ، أن ترى ولا تُرى ، يستر هذا الزجاج ضعفها أمام تيقظ سوء ظنها واضافات احساسها بالصغار والهوان .

وهناك الزجاج المزخرف بالنقـوش البارزة تمسه اليد فيرعبها فقدان النعومة المألوفة ، وتصطدم به العين فلا ترى من خلفه الا اشباحا تتراقص ، معدومة الملامح ، وألوانا لا حدود لها تتداخل وتمتزج مع بعضها .

وهناك الزجاج الملون ما ان تنظر اليه حتى يمنحك الاحمر منه لون اللهب المتصاعد مـن الحرائق وشمس الغروب ، ويعطيك ما كان أزرق منه بهجـة البحر ، وارتفاع السماء . أما الاخضر فيبتعد بك نحو امتـداد الحقـول والبساتين الازلية ، والاصفر يأتـي اليك بالصحارى ، رمالها وكثبانها الزاحفة ، وانعكاسات النور على صفرة الرمل ، وقد يكفّ هـذا الزجاج الملون عن منحك هذه الاشياء عندما لا تريد ، فالامر يتوقف على رغبتك في المقام الاول .

لقد تهشم زجاج احدى النوافذ . وسقط الحطام على الارض ، أو فوق رأس بشري ، لم يكن أحد يعلم . ني الصوت عبر الممرات المعتمة ، مجسدا ، كأنـه يمر عبر أقنية تكبر الصوت وتضاعفـه ، واختلط بصوت موسيقى بعيدة ، لم تكن « سيرانادا » أو « افتتاحية » انما كانت لحنا أحاديا ، يعتمد الايقاع الرتيب ، وقـد تساقطت ضربات آلة الايقاع مع حطام الزجاج وضاعت . لم يعد أحد يسمعها ، لم تعد تسمع ..

قد يكون أمرا معتادا أن يتحطم زجاج نافذة ما . ن يرمى بحجر ، أو تهجم عليه قبضة يد غاضبة . وقد يتحطم الزجاج جميعه فتتعرى النوافذ في حالة غـارة جوية يعقبها انفجار ... ما حدث قبل لحظات ان زجاج نافذة ما قد تحطم ، وما علمت كيف تناثر الزجاج ، بل انها لم تفكر بذلك ، أسقط على منضدة ، او فوق رأس، أم على الارض المبقعة بالحبر والشاي والكلمات الهاربـة والنوايا المختبئة بين الاقدام ؟

وعلى الاثر انفجرت ضاحكـة . فامتلأ جو الغرفة بصوتها . كانت تهزج بضحكة مباغتة ، ضحكة طفل يهلل لفوز غير منتظر ، فأخذ يصيح من فرط جذل ، معلنـا للآخرين حبوره وانشراح قلبه .

« شيء جميل ومذهل ... كنت قبل لحظـات أتوقع تحطم شيء ما ، لوح زجاج أو قدح . أحب صوت تحطم الزجاج . أحب انهمار الشظايا دفعة واحدة نحو هدفها . وبعد ذلك يطيب لي أن أراقب رعب الآخرين . خشيتهم ، وانفعالاتهم المختلفة ، لامبالاتهم أو اهتمامهم الزائد ، ثرثرتهم ، وتعليقاتهم الفكهة أو تعليقاتهم الباردة السمجـة .

في لحظة التحطم أيا كانت . اي تحطـم كان . لزجاجة أو قدح أو قيمة ما ، أو انسان ، اتشوق الـى رؤية البشر يقفون وجها لوجه أمام خسائرهم ، لاكتشف كيف يسلك انسان ما في وضع ما ، اذا أصابه التحطم أو مسّ بعض ما يملك أو ما لا يملك .. كيف يسلك أمام تحطم قدراته ، على المجابهة ، عندما يستسلم مهزومـا وتتساقط روحه مزقا وأشلاء .

ــ ماذا يفعل المرء ازاء هذا ؟.. ماذا افعل ــ تساءلت المرأة ــ اذا رأيت انسانا يتحطم أمامي مثل لوح الزجاج ؟

ــ سأسرع .. الم ّ الشظـايا ، وأعيد تكوينهـا وأمنحه ــ ان استطعت ــ فرصة الوقوف مرة أخرى ، أطلب منه أن يصارع خوفه الداخلي ، خوفه الذي أدى الى تحطيمه ، وأستعبده وأذله ، سأجرّه الى أن يكاشف نفسه ويتماسك .. حتى يتوصل الى معرفة حقيقته . سأقول له : « الانسان ليس زجاجا ، أو تظن انه كذلك ؟ انك لست من زجاج » .

عند ذلك سأنتظر قليلا .. أجل قليلا جدا ، فأنا مخلوقة غاية في نفاد الصبر ، فان لم يبـادر الى فعل

شيء ما لانقاذ نفسه من هزيمتها سأدعه لمصيره ، ولن ألتفت اليه .

ربما سيقال : هذا موقف مجانب للرحمة ، وبعيد عن المنطق ، وعما يقتضيه كوني انسانة ذات قلب لا يجيد سوى أن يكون قلبا .. لكني سأفعل ذلك » .

خرجت من غرفتها مسرعة ، وعادت الى الضحك ، ولما وقفت أمامه وجدته مكبا على منضدة ، ممسكا حافتها بيديه ، متوترا مشدود الذراعين وفي وجهه ذلك الشحوب الناعم المثير ، شحوب مريض تافه يستعيد قواه . نظر اليها ، فامحى الشحوب وتألق بعده اعتذار صميم لشخص أحرج في اكتشاف سر يحرص كل الحرص على كتمانه .

خفض عينيه وابتسم ضاغطا بأسنانه على شفته السفلى التي تحبها ، ثم تماسك قليلا ونظر في عينيها الضاحكتين . فلمحت شرايين وردية دقيقة محتقنة في عينيه ، وخافت ان يكون مريضا .

ولما أطال النظر في عينيها ارتبكت وهمت ان تقول شيئا . اي شيء . لا اهمية لما تقوله ، المهم ان تفعل شيئا . ولكن لا تدوخ في وقفتها الحائرة وتدوخه معها . ولكي لا تطيل حراجة الصمت بينهما آثرت أن تنصرف فأسرعت بخطى خفاف تدرج مثل يمامة فرحة . وعاوده شحوب وجهه . فضرب بقبضة يده منضدته . واطلق زفرة خافتة ، فشعت داخل روحه كلمات ناعمة وذكريات صغيرة ، وهاجمت أنفه رائحة مروج . ومطر ونبيذ ، وروائح قهوة وريش طيور مقبلة الاجنحة ، ورائحة عنق دافيء معطر ، ومشهد نافذة مفتوحة للمطر ، وامرأة متكئة على الاريكة في ثوب ناعم طويل ، تمد قدميها العاريتين على منضدة واطئة ، فيتهدل ذيل ثوبها ملامسا الارض ... وزجاج النوافذ مزخرف بالضباب والندى والليل ، والحب ، كان هو ذاته الجالس ها هنا في ارتجاف يديه . وكان هو ذاته الجالس هنالك في جبروت امتلاكه للسعادة ، للمكان . للزمان ، لحبها ، لجمال أن يكونا معا . أضافت له الضحكة الطارئة التي سمعها اللحظة مزيدا من الافتتان والتحرر من الاحساس بالفجيعة والخسران ، فأصبح قادرا على الصراخ ، والقفز والرقص ، وبدأ يتساءل : هل سيكون هو ذاته عندما تعود اليه ثانية ؟ هل ستنتهي لحظة الصمت المتوترة وتنكسر ويكون لها صوت الزجاج المهشم ؟

هنالك في الغرفة الاخرى يجمعون الزجاج ... بل انهم لم يبدأوا بعد .. سيذهب اليهم .. كلا لن يذهب .. انهم منصرفون الآن الى اجادة تقريع بعضهم وتثبيت الاتهام .. لماذا يذهب اليهم ؟

وقف أحدهم مصابا بذعر أن يجرح . ان تصيبه شظية طائشة ، فينزف كل دمه وينتهي ..

كان تفكيره منصرفا الى نقطة الموت كما اعتاد دوما أن يفعل . عندما يحدث أمامه شيء .. أقل الحوادث واعظمها .. كلها تثير لديه شهية الموت ، كان يضع كفيه الكبيرتين أمامه ، ويتابع حركة العرق النابض في المعصم . كان يخاف الاشياء النهائية ، الارتباط بأمر ما يعني لديه مزيدا من الاستسلام للقوى المسيطرة على العالم ، القوى الخفية المجنونة ، كان يخاف ان ينتهي كل أمر لديه الى تفاهة عابرة ، يبدأ بالحماس وينتهي بالضجر ، يبدأ بالرغبة وينتهي بالزهد ..

ضم أصابعه على راحة يده ، فانغرزت اظافره فيها ، وبرز شريان ناعم حي ، نابض صغير ، اخضر ، شريان يمتد من منتصف الرسغ حتى ابتداء الكف . وللحظة استطاع ايهام نفسه بأن في هذا الشريان يكمن سر الجسد كله ، ولهذا السبب دون سواه يفضله المنتحرون .

تحسسه باصابعه المرتجفة ثم توقف :

ماذا لو سقطت عليه اللحظة شظية حادة مفاجئة ؟ سيتمزق بلا أدنى ريب ، سيقطع تماما ، ويتفصد الدم منه غزيرا ، ساخنا ، نقيا ، وعندئذ لن يستطيع اي أحد ايقافه .. سينقلونه الى احد المستشفيات ، الى اقربها وليس أفضلها ، وسيسعف ويعوض عما فقده من دم ، وتنبت حوله الشائعات ، تنمو وتعلو احداها وتكبر ليراها الجميع ، هذا رجل حاول التخلص من مأزق حياته مفضلا الموت على الاستمرار في لعبة الحياة .

لعبة الحياة ؟.. مرة سمع زميلة له تقول : الحياة وما فيها مثل جبل الجليد العائم ، ومن يقف على الشاطىء لا يرى الا جزءا واحدا من اصل ثمانية اجزاء تشكل حجمه الهائل . اما الذين يغطسون ويمارسون عناء البحث ، فانهم يرون الاجزاء السبعة الغاطسة ، سبعة أثمان خادعة ، مضللة ، تخفي حجمها الكبير تحت الماء . وعندما يكتشفون ذلك تفسد قلوبهم بالمعرفة وترهبهم خطورة هذا الجبل الخادع ، ولا يكفون عن التفكير بالاحتمالات التي تكون عادة في غاية السوء ..

جبل الجليد نوع من الزجاج الابيض ، يوهم ، يضلل ، يستدرج .. تصطدم به السفن المنكودة ، فتتحطم ولا يتحطم ... تخدعها ضآلة ما تراه ، وتمتلىء بالغرور وتسير بسرعة لا تصدق ، لتنتهي حطاما تافها يضيع في متاهات البحر .

كان الرجل الخائف واقفا ، لا يدري منذ متى ، وعندما تنبه ، دفع كرسيه وابتعد عنه بحركة سريعة تنبىء عن هيجان مستتر ، وحرك يده على نحو حائر ، فاصطدمت بدورق وقدح ، وتناثر الزجاج مرة أخرى.. فأصبح الرجل محاصرا بالزجاج من الجانبين ... غطت وجهه غمامة من أسى . وقف مترددا يتأمل ما الذي سيفعله امام حصار لا يملك ازاءه الا المخاطرة ، احس ان عليه ان يتخذ قرارا بالخلاص من المأزق . قد لا يكون قرار ما قرارا حكيما ، ولكنه على اية حال يكون ضروريا في موقع الدفاع عن النفس . عليه اذن أن يتجه الى

احد الجوانب . لينجو من حصار الزجاج ، والا فانه سيتحطم خلف منضدته كما تتحطم قارورة هزها انفجار أو زلزال ؛ فتشظت في موقعها لكنها تماسكت ولم تتساقط حطاما . ومتى هبت عليها الريح أو هوجمت بحركة مباغتة ، انهارت مرة واحدة .. تحرك ووقف قبالة النافذة ، ورأى طفلا يعدو على حشائش الحديقة المجاورة ، والشمس تحتل لون ملابسه وتؤجج لون شعره ، فيتألق الطفل بكامله ، يصبح مثل تمثال ناعم ، شفاف ، مشع ، يركض ويعبث ويضحك ، يقفز ثم يسقط على الحشائش فيخشى الرجل أن تحترق بوهجه . لكنه يطمئن عندما ينهض الصغير ، ويعاود لعبه . لحظتها اكتشف ان نور الشمس وامتلاء الطفل بالحياة والضجيج والحركة قد ائتلفا وأصبح النورمطابقا لحركته التي لا تهدأ ، لصوته المشتعل ، للون عينيه اللامعتين ، لنعومة ملابسه . ولما لمحه الطفل ابتسم له ، ولوّح بكفه الصغيرة الناعمة ، محركا أصابعه الطرية ، فابتسم له وأراد أن يرد على تلويحته ، لكنه أحجم عن ذلك مخافة أن يتهم بشيء ، وفي هذه اللحظة ظهرت الام محزونة الوجه رغم ابتسامتها . اقتربت من الطفل وعانقته ولما تعلق برقبتها أعادت تقبيله ثم أنزلته بهدوء واستدارت مسرعة حول الاشجار العالية والفراغ ، واختفت تماما مثل طيف عابر .

* * *

قبل قليل كان الطفل يسأل أمه :

ـ لماذا يا أمي نضع الزجاج على النوافذ ؟

صمتت الام ولم تجب .

وسألت نفسها : (لماذا نضع الزجاج ؟ النحمي انفسنا أم لنعيق أفعالها ؟) .

« الزجاج أبواب مضللة تحمي بقدر ما تعيق ، أبواب لا تعلن عن نواياها فجأة ، بل توهم المرء بالنفاذ منها الى حيث يهوى ، فاذا ما اقترب صدّته ، فتحطمت رغباته على سطح الزجاج الاملس » .

« كم مرة أردت النجاة من حصار ما ، في محاولة الخروج من ضعف ما ، حاولت القفز من نافذة ، وكان ذلك لا يكلفني غير قدر قليل من الشجاعة ، ارفس الزجاج بقدمي فيتهشم وانجو .. يوما » .

عندما أمسك بيدي أملا ، عندما أفقد مفاتيح ابواب النجاة وأشعر بالحصار على نحو كامل ربما سأفعلها ، قبلا كنت دائما ما أفكر بمآل الامور : ما الذي سيحدث لو فعلت ذلك ؟.. وكنت أخاف وأرتعب فأتراجع ...

عندما سأقدم على ذلك في يوم ما ، سيكون الاوان قد آن لفعله ، فلا أسمع لحظتها أصوات اللوم ، ولا تخزّني ابر التراجع ... سيكون كل شيء مبررا ومطلوبا ، بل مشروعا . سأكون قد بلغت من القوة ، حدا أهرع معه الى مصيري دون أن ألتفت الى الخلف ، فاما ان أرتفع بنفسي عن خداعها او أسقطها كحجر في بركة عميقة . أرتفع أو أسقط ، اسقط أو أرتفع ، اسقط . أرتفع . يظل الامر نسبيا في الزمان والمكان ، سأرتفع في موقع اذا انخفض ما حوله ، وأسقط في الموقع ذاته اذا ارتفع ما حوله . لكن ارتفاعا ما سيكون حقيقه اذا ما آمنا به . سأصبح حالة مجيدة ، وأقول لانسان ارتضيه : « لا تضيع ما يتاح لنا ، انا مقبلة على اكتشاف غدي .. أقطع المسافات بارقام قياسية ، أعدو اعدو . فتتساقط الحواجز تباعا.. زجاج نوافذ ، زجاج واجهات . زجاج تعاليم يابسة ، وتعاليم أصابها الرشح، زجاج الاهاجي المتين .. تتساقط الساعات التي تحدد الزمن بين قوسين والساعات التي تضيع الزمن خارج الاقواس والفواصل . تجعله فضفاضا واسعا رخوا ، لا يحتفظ بأحزان البشر أو بؤسهم ، او سعادتهم ، له مسامات واسعة تتساقط من خلالها الاشياء والعواطف والقيم » .

« ... مرة حاولت تهشيم الزجاج لنافذة ما ، فتذكرت ان البيت سيفقد دريئة تصد عنه اكتساح الطبيعة . وتراجعت ، آلمني ان بيتا ما ـ أي بيت ـ سيتعرض لهذا الاكتساح .. للريح ، للغبار والبرد والمطر ... ويتعرض من فيه الى جراح تسببها شظايا الزجاج .. رأيت دما . وأكفا تنزف ، وضمادات ، وشممت رائحة أدوية مطهرة، وهكذا تراجعت ، وحافظت على الزجاج وحافظ عليه غيري ، مكرهين نحافظ ، ونحذق في تمثيل انسجامنا وتطابقنا مع حواجز الزجاج. نظفها ، نصقلها ، نسدل عليها أستارا ثمينة ، ونبالغ في الاحتفاء بها والدفاع عنها لنكسب رضا البنائين والبائعين والحراس ، ونهاجم من يحاول تهشيمها علانية، ونغبطه في السر ، ونعجب لصمود أنفسنا أمام زيفها ، وحذقها الكريه في التضليل ، يوما ما سوف لن نتراخى أمام اكاذيبنا ، سنجلدها حتى تتهرأ ، ونجلدها حتى تتساقط .. » .

أيقظها صوت الطفل :

ـ كل مرة أريد القفز من النافذة فيمنعني هذا الزجاج الذي لا احبه .. لماذا تضعون الزجاج على النوافذ ؟.. الا تجيبيني يا أمي ؟

ابتسمت الام وحدّقت في العينين المتوقدتين وأخافها قليلا أن لا تستطيع ارضاء فضوله .. وخمنت انه ربما سيضحك منها .. وقد يصمت غير مقتنع ويعود الى لعبه ولهوه .

قالت : حقا انه كما تقول ..

تنبه الطفل : كيف يا أمي ؟..

استدركت الام : نضعه لاسباب عديدة ، فنحن نرى وراءه كل ما تحجبه الجدران من أشجار وفراشات وغيوم ، ألا ترى الشمس تغمر كل شيء خارج الغرفة ؟ ألا تشعر بالدفء أم انك تحسّ بالبرد الآن ؟..

فقال دون أن يبدو عليه الاهتمام بما قالته :

ـ أريد أن أخرج الآن .. لست بردانا ..

تضايقت الأم قليلا وخيل اليها ان طفلهـا سيفعل ذلك في يوم ما .. سيحطم زجاج احدى النوافذ وسوف يسببلها حزنا أكيدا وحرجاوشعورا بالقصور او العجز، ولكنها النوافذ : هذه الجدران المرائية الخادعة .

ـ ماذا بوسعي أن أفعل ؟ هكذا هي الامور دوما ..

أمسكت بمقبض النافذة ، فأسرع طفلها نحوهـا .

اختضّ قلبها . فسمعت وجيبه ، وتأكد لها ان هذا الطفل سيكون نافذتها وأفقها . وعندما فكرت بهذا انتعش أمل صغير في روحها ، فأمسكت برأسه الناعم وقبلت جبينه ما بين عينيه ، وقبلت أذنيه وعنقه ..

قال : ما بك يا أمي ؟

ـ أحبك .. ألديك اعتراض ؟

امسكت مقبض النافذة البرونزي ، حركته رافعة اياه في حركة نصف دائرية الى اعلى فانفتحت النافذة ، سحبتها . وفجاة انعكس سطـوع الشمس على سطـح الزجاج وانغمر وجهها بالنور واغمضت عينيها اتقـاء الوهج المشع .. انفتحت النافذة الى اقصى مدى ممكن وانغمرت الغرفة بالهواء الرطب . المنعش . والاصـوات المختلطة من ابواق السيارات ونرثرة الاطفال وزقزقـة الطيور ، ووقع الخطى ، وقالت :

ـ لا باس .. ما أن يتجدد هواء الغرفة حتى أعيد اغلاقها وأنجو من كل هذا ..

نظرت الى وجهها المنعكس عـلى صفحة الزجاج فوجدته صافيا ، هادئا ، ومدت يدها تسوّي خصـلات شعرها المتناثرة . وهي غالبا ما تقوم بذلك كلما واجهتها مرآة أو سطح لامع عاكس ، ثم هبطت عيناها الى أسفل عنقها ، فأسرعت اليد تزرر بحركة تلقائية فتحة القميص التي كشفت عن جزء كبير من صدرها .

فكرت : (يضايقني أن يعرف الانسان كل شيء عن نفسه وعن الآخرين .. أكره المرايا والزجاج لهذا ..) .

قبل قليل ، كانت تجد راحة وهي تعمل في البيت مثل نحلة مزهوة ، ولما احست بالحر يضايقهـا والعرق يتحدر من عنقها وشعرها فتحت القميص طلبا للابتراد ، ولكنها فزعت عندما رأت صورتها منعكسة عـلى الزجاج واحست بمأزق ان يراها احد هكذا نصف عارية ..

انحنت تلتقط كرة صغيرة ، وخطت في الغرفة . واجهتها مرآة كبيرة بطول قامـة الانسان . واعترضـها سطـح منضدة صقيـل ، وتكاثرت المرأة في المرايا ، والزجاج ، ولما خرجت الى الحديقة تنادي صغيرها كان الماء في السواقي مرايا وزجاجا يعكس صور الموجودات كلها . وعلى هذا فقد شعرت بأنفاسها تضيق وقلبهـا يرتجف ، ولم يمنحها هواء الحديقة ولا شـذى النباتات ولا رقة الغيوم أي احساس بالبهجة ، فعادت مسرعـة الى الداخل .

لبث الرجل ممسكا بحافة منضدته . عيناه ذابلتان وأسنانه تضغط بخفة حذرة على شفته السفلى ..

من يراه لا يشك في كونه يعـاني حزنا أو ألما ، أو حالة من حالات سفك المشاعر ، بل انه في واقع الامر كان يعاني من كل هذا ..

في غمرة تحطم الزجاج ، وتحطم الصمت بسقوط الزجاج ، وضحك المرأة ، سمـع الرجل نداء فاستجاب وانصت جيدا . كان صوت المرأة يقترب يقترب ، يخترق الجدران والزجاج ، والزمن وسنوات العمر ، والمخاوف والحذر ، يقترب ثم يهطل عليـه كالمطر .. ينقر على سطح جلده .. على كتفيه المرتعشتين بعروقهما البحرية، جذور محبتهما ، ويهطل على وجهه المتأمل ، الساكن ، الغاضب ، المضطرب غيرة ، المفتون بالقسوة ، المتواضع المسكون بالصبر ، والهيام والصدق والانتظـار ، يسقط صوتها المطري ، على الاوراق ، ويتجول بين الجـدران والارض .. بين الجدران وحواجز الزجاج ، يدوّم حوله مثل عاصفه محتجزة بين القضبان والاعيـن والاهاجي والمتابعات .

يخنض الجسـد البشري تحت المطر ، يرتجف الرجل الذي ابتلت ملابسه ، والرعد ينذر بمزيد من المطر . وعلى الارصفة تتفجر فقاعات الماء تباعا مثـل بالونات صغيرة او لآلىء انفتحت عنهـا المحارات . بأي شيء يحتمي الرجل ؟ أبالمظلات ؟ أم بأفاريز الابنية ؟.. بالظلمة أم بالنور ؟.. بالزجاج ؟!.. الزجاج المعتـم ، الزجاج الرطب ، الذي سالت عليه قطرات الماء المتكاثفة، من بخار أباريق الشاي والافواه ، والنباتات السجينة ، والافرشة المبتلة ، والخبز الطري ، واكداس الحطب التي لم تجف .

« كيف ستراني بعد قليل ؟ هـل ستكتشف غرقي في ملابس بللها المطر ؟ ستخجل مني وتخجل من إجلي حين ترى شعري قد تهدل والتصق عـلى صدغي مبللا مبعثرا . ستقترب مني ، وعنـدما تمسني ستسري الرعدة في دمي ، تسوي شعري ، بل انها ربما ستأخذ منشفة وتجففه ، وتجف ملابسي ، وستقول محتجة : « المطر ... الا تكفّ عن جنون الاستسلام للمطر ؟ أن تستقبله دون اعتبار للنتائج ؟ » .

تفرعني مثل طفل وتحبني مثل رجل وتفارقني مثل أخت لكنها ستأتي بعد ساعات ثلاث . ينتهي المطر وتجف الملابس ، والشعر والروح ، ستجدني جافا في جحيم انتظاري لها ، يتبخر نسغي مع المياه التي تصاعدت من الارض حال ظهور الشمس ، أنتظرها ، أروح وأجيء ، تتأخر دقيقة أو دقيقتين ، فيفترسني خوف أن تصـاب بأذى .. ثلاث دقائق وأسمع تحطم زجـاج نافذة ما ، نافذة سيارة مسرعة تتهشم عندما تصطدم بسياج واطيء، زجاجة فارغة ألقى بها صبي وسط شارع مزدحم ، شيء ما يتحطم فأرتعب . اربع دقائق ، لن تأتـي .. يختضّ

جسدي مرة اخرى ويجف حلقي .. هل ستهجرني في يوم ما ؟ تهجرني مثل أخت عاقلة ترحل الى بيت زوجها ؟.. وتعطيني تذكارات عرضة للفناء ، منديلا ، رسائل ، كلمات ، كلمات .. لن أحتفظ بهذه الاشياء الرهيبة ، فليأخذها مني من يشاء ويعيد الي ّ حبيبتي .

أتظن انها بذلك تعوضني ؟ تعوضني بهذه الاكاذيب الدنيوية عما لا يعوض ؟.. أقايض وجودا بشريا بأصداء كلمات ، بأوراق وروائح .. كلمات وتذكارات . لحظتها سيسقط العالم ، تموت هي وتجف ّ مثل غصن مكسور ، واموت أنا ويتحطم الزجاج بعدنا ، أصرخ قبل موتي : لقد خسرت ..

فيتجمع حولي أناس بلهاء ، أو ذوو عواطف طرية ، أو أناس ذوو فضول وآخرون عابرون ، سيهو ّنون الامر علي ّ ويربت بعضهم على كتفي فأصرخ بهم : لقد خسرت .. انها خسارتكم جميعا ... خسرت .. خسرت ..

هي لا تأتي .. بل ها هي تطل ّ من نافذة حافلة ، من نافذة قطار ، من لا مكان ، من كل مكان . خمس دقائق . لقد أتت . مهلا أيها القلب ، لقد جاءت . لم اخسر غير حزني وسوى خوفي واضطرابي . ها هي تمد يدا وعينين وفما متألقا ، تمد ّ لي زمنا ووعدا ، بأن تكون لي ، أصدقها ، لانني أريد ذلك ، ولانها لا تريد سواه . لا أريد أن أغدو مخلوقا قابلا للتهشم أو الشفقة أو النفور أو العجز . لا أريد أن أصبح « هو » . أريد ان اظل في صوتها « أنت » . لا أتخلف عن الحضور لحظة واحدة ، في نبضها وحزنها .

وعندما يصيبني ضعف أن أبتعد عنها في لحظة جنون ، ستكون ذريعة عيش انني أراها وأتخذ من صوتها متكأ للحلم . كلا ، ستكون ذريعة موتي انني مبتعد عنها .

نظرت الى وجهها ، وامسكت بخيوط الحزن فيه ، كنت أعوم في حزنها ، في لوعة عينيها وبهجة ابتساماتها ، كنت أجدني فيها . قبل ذاك كنت وحيدا ، تنعكس صورتي في المرايا والزجاج ، وأتكاثر وحدي الآن أنا فيها وهي في ّ ، نحن وحدنا ، ننجو سوية بالحزن أو بغيره . عندما أفاجأ بجبال حزنها في لحظة ما ، أسائل نفسي :

ــ هل أرضيتها ؟.. أم هل بالغت في صب قسوتي على رأسها ؟..

هل غاليت في احتكامي لتعاليم الارض ، للمثل ؟ وان حصل ذلك فلماذا لا تعترض على مظالمي واخطائي ومساوئي ؟ لماذا لا تواجهني وتهجرني ؟ أليس لانها تحمل بركة المحبة المفتداة ؟.. أليس لانها تحبني اكثر مما أحبها ؟

هل أستطيع مع وساوسي أن أدرك عمق مشاعرها ، رقتها ، عذاباتها ؟ انني أضلل نفسي .

أطلت ومدت الي وجها وزمنا وحبا تريد له أن يكون ببساطة صادقا . مدت الي ّ وعدا وانتمت الي وانتميت اليها ، وسألتها :

ــ هل سيدب ّ السأم يوما الى حبنا ؟..

فقالت : ــ هذا منوط بك ، ومرهون بحفاظك علي ّ وعليه .

نجلس الى بعضنا ، فأقبل أصابعها وأعتذر .

تقول : كلا . لن تعتذر ، انك تراهن على صدقي ، وهذا ما لا أرتضيه لك ولنفسي ..

لن يكون ما بيننا اعتذارا ولا لوما ، ولا ظل أسف . سيكون ما بيننا انك تعرفني كما لا يعرفني أحد ، وأعرفك كما لا يعرفك أحد .

وصمتت واستكانت واسترخت كتفاها وهدأت ملامحها ، ثم فجأة وقفت وقالت :

ــ لماذا لا تحسبني أشد غيرة مما أنا عليه في الواقع ؟ لماذا لا تفكر مرة واحدة بأنني تدوخني الافتراضات ؟ لو أجمع خطاياك .. لو اجمع سنواتك امامي .. اتفحصها ، أنقب في مزاياك ، ومساوئك ، اجمع عدد المرات التي برعت فيها في انتشال نفسك من التجربة والتي تآمرت فيها ضد نفسك ... أتعرف لماذا ؟.. ما الذي يدفعني لذلك ؟

ــ الثأر لنفسك مني .

ــ بل الدفاع عن هذا الحب .. فهل ستحاول تضليلي بعد ذلك ؟..

ــ لم أضللك يوما .

ــ ولم اضللك أبدا .

عند ذاك سمعت صوت تحطم الزجاج وضحكها والرعود ، تمازجت الاصوات عاتية ، صاخبة ، مختلطة ، ولما ابتسمت لي ، لم أعد أسمع شيئا ، لم أعد أسمع » .

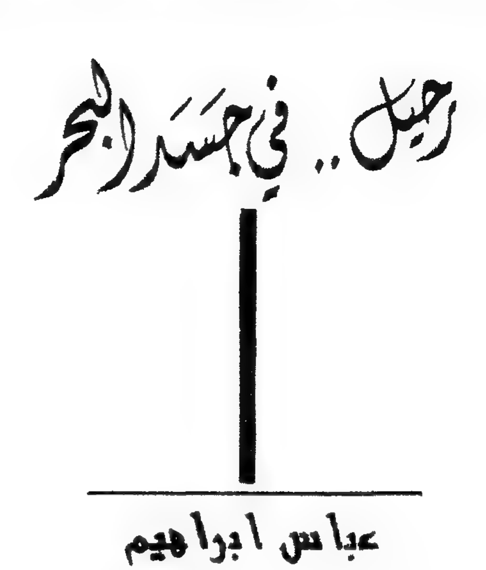
ضرب بقبضة يده سطح المنضدة ، ووقف محيرا مهتاجا ، ثم ترك مكانه وانطلق الى الشارع لائذا بالمطر والريح .

* * *

غادر الرجل الآخر الذي حاصرته الشظايا موقعه وتنفس بعمق ، ثم جلس على الاريكة المقابلة . نظر برعب الى كومتي الشظايا على جانبي الغرفة ، ثم عاود النظر الى النافذة ، فألفى الريح مدومة والاشجار تتحرك ولون السماء قد تغير الى رمادي ، قبيح . تحركت الاغصان في كل اتجاه ، فتعسر عليه معرفة اتجاه الريح ، وخمن انها قد تكون شمالية غربية أو جنوبية شرقية ، وربما كانت شرقية غربية . واستفزه هذا ، فقال :

ــ كيف تهب ّ ريح مثل هذه ؟ وما اتجاهها ؟ تدور من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ؟ لا ادري !..

بغداد



وحده البحر ،
يعرف سر التصاق السفائن بالماء ،
سر ارتحال الحصى ،
والرمال ،
وللرمل أيضا لغات ،
هي الآن مجبولة بتراب الجبال ،
ونحن
امتزجنا مع الماء ،
قلنا
سيغرقنا البحر ،
ـ ها نغرق الآن ،
يأخذنا للينابيع ـ
قلت اغرقي الآن من مائه الابدي ،
اكتبي للعصافير ،
« طعم الملوحة في شفتيه ،
المسافات مجنونة في دمه ،
الـ ... » .
تذكرت :
كانت رمال السواقي تهاجر ،
بحثا عن النهر ،
ـ لا لغة للسواقي ـ
ولكن للنهر أهزوجة ،
للنباتات أنشودة ،
وجهك الصدفي
له لغة النهر ،
أقرأه في صخور الشواطىء :
عند المصبات ،
ارسمه في دفتر ،
من قشور الغصون الطرية ،
والبحر يكتب أسماءه في كتاب الرمال ،
تهجيت أسماءه :
ا ، ل ، ب ، ح ، ر ،
و ا ، ل ، ع ، ش ، ق ،
و ا ، ل ، م ، و ، ت ،
عيناك في لغة البحر ،
دربان للسمك العائد ـ الآن ـ من رحلة النسل ،
يا امرأة من تخوم المجاهيل ،
ـ كيف عبرتِ دوائر خوفي ،
تسللت
أم دفعتك العواصف ؟
لا فرق ،
كل المسالك مفتوحة .
فادخلي ، واقرأي أبجدية عشقي ،
اكتبي للذين يجيئون ،
« في دمه العشق ،
في دمه البحر ،
والشجر المترهل ،
والتربة الراحلة » .

* * *

يحدثنا البحر ،
ـ ها لغة الماء أقرب للقلب من طلقة فارغة ـ
يحدثنا البحر ،
كل اللغات تجيء من الجوع ،
يا امرأة .
ان في جسدي لغة الخبز ،
خبأها الجوع بين العظام ،
ها هي الآن تأتي مع الموج ،
مثل السفائن ،
تختصر الوقت في لحظة ،
ها هي الآن تستنزل المطر ،
اختبئي في مسامي ،
سافري في عروقي ،
فكل الموانىء مكتظة بالقادمين ،
وكل الموانىء مكتظة بالعابرين .

حمص — **عباس ابراهيم**

قصة قصيرة

الهدايا الخضراء الغامضة

احمد الباقري

تنكمش المدينة على نفسها كالبيضة يخترقها النهر بوداعة حاملا على ضفتيه تيجانا من النخل الصامت الموحش . ويمتد شارعه الطويل المغبر كحيوان نائم . كان خاليا وقد أقفرت مقاهيه ، وكان ثمة هواء رطب وثقيل يدوّم بين الاعشاب الشوكية المتشابكة كمؤامرة . التمع الماء على الشاطىء ؛ وكان ثمة مناجاة خفية معقودة بين الماء والاعشاب توحي بأن ثمة شيئا ما مفقودا في تلك العتمة . كان الفراغ سيد المكان ، وكان يتسع وبتسع حتى ظلل كل الفجوات المعتمة بين الاعشاب وتمدد بين الشقوق اليابسة في وجه أرض الشاطىء .

كانت الفتاة الجالسة على مصطبة مع اختها الصغيرة تراقب هذه الشقوق وتتابعها متفرسة فيها ؛ وكانت تجد فيها ايقاعا متناغما وحيًا مع ايقاع حياتها ، فكانت تتابع شقا متعرجا حتى ينقطع ويبدأ شق آخر أكثر اتساعا . بدت الشقوق ضيقة ما تلبث أن تتسع وتتلاقى وتنتشر في كل الاتجاهات بعفوية أخاذة كايقاعات على طبل يوقعها طفل غاضب . انهمكت أختها الصغيرة بتنويم لعبة صغيرة تطبق اجفانها عندما تنطرح على ظهرها ، وما تلبث أن ترفعها بشكل عمودي فتفتح عينيها الجامدتين ، حينئذ تنشقّ ابتسامة جذلى في وجه الطفلة وتهز اختها محاولة أن تجعلها تنظر اليها . كانت الفتاة مستغرقة بتأمل تلك الشقوق الجافة ، وما لبثت أن رفعت عينيها الى السماء ، كان ثمة غيمة سوداء تنعقد فوق النهر : كبيرة وغامضة ومهددة . تأوهت الفتاة وهي تراقب تلك الغيمة ، فكرت : « انه مساء آخر مثل الاماسي الاخرى » .

عبر الشارع ، في العتمة المجاورة ، كان ثمة نافذة مفتوحة ومضاءة ، وقد قبع وراءها شاب نحيل يراقب الفتاة بانتباه شديد ، اصطفقت درفتا النافذة ، وغاص الضوء كفريق عاجز واختفى في الغرفة . استبدت العتمة . فأخرج الشاب سيكارة وأشعلها . كشف ضوء عود الثقاب عن وجهه الشاحب ، وكان يبدو رصينا وهادئا . نفث حزمة من الدخان . انعقدت كغيمة أمام وجهه ثم تعالت في العتمة واختفت . اخذ يربت على ساقه بهدوء وانسلّ خارجا من الغرفة وخطا ليعبر الشارع . اتجه نحو المصطبة التي تجلس عليها الفتاة وأختها . وعندما اقترب منها تنحنح بخفوت . شعت في وجه الفتاة ومضة انتباه وأطلّ من أعماق عينيها خوف خفي .

قال : مساء الخير . تلعثمت الفتاة وارتجفت قليلا ومدت ذراعيها واحتضنت أختها المنهمكة بمداعبة لعبتها . وردت التحية بهمهمة غامضة .

كان ثمة شيء ما مهدد بوشك ان ينقضّ عليهما بين لحظة وأخرى . ولم تكن تعرف ما سيكون . انها تحسّ بشك غريب من الغرباء وتحمل لهم في أعماقها سوء نية غامضة وان كان وجه ذلك الشاب لا يبعث على الريبة بل انه يضفي طمأنينة عميقة على الاشياء التي ينظر اليها . كان في نظرته مشاركة حارة دون سابق معرفة ، وفيها ذلك الصفاء الذي ينظّم فوضى الاشياء . كانت نظرته كيد مدربة تنظم مائدة سيئة الترتيب . وقف منتصبا كسؤال ؛ اختلج جسد الفتاة وسرت رعشة في ذراعيها اللتين تحتضنان أختها ، حاولت ان تتماسك فازدردت ريقها وانتصبت في جلستها . قال الشاب : « هل تسمحين لي بالجلوس ؟ » وبدون أن ينتظر الجواب جلس الى جانبها بهدوء وبتوجس ، كأنه يجلس على صفيحة ساخنة . نهضت الفتاة فجأة وجلست على الطرف الآخر من المصطبة ووضعت أختها الصغيرة فيما بينهما ، وكانت الصغيرة هذه تتطلع اليه مبتسمة وهي ترفع وتخفض لعبتها حيث تغلق وتفتح عينيها مما بعث

بها جذلا خفيا . أشارت الى لعبتها وهي تغمض عينيها : « أنظر .. هي نائمة .. لا تتكلم حتى لا توقظها » . ورفعت اصبعها الى فمها الصغير : اس .. اس ..

ابتسم الشاب ورفع يديه قائلا : « حسن .. لن أتكلم ما دامت نائمة ، ولكن ما اسمها ؟ » . أجابت الطفلة بخفوت : « سيسبان » .

حكّ الشاب رأسه بيد مختلجة وندت منه آهة تعجب قصيرة : « يا له من اسم غريب ! ولماذا سيسبان ؟ »

ردت الطفلة دون أن تقدم تفسيرا ، وكان ردها قاطعا : هكذا .

همهم الشاب وصمت وهو يتطلع الى اللعبة المغلقة العينين ، ومد يده ليداعب شعرها الذهبي القصير ، الا ان الطفلة أوقفت يده ودفعتها بعنف قائلة : « كلا .. كلا .. لا توقظها .. هي تحلم الآن » .

قال الشاب : « وبم تحلم يا عزيزتي ؟ » .

ـ « تحلم بالجنة » .

ومض استغراب ابيض في عينيه ، ونبت سؤال على شفتيه ، ولكنه قطعه على الفور وفكّر : « ان هذه الطفلة لا ترد بأجوبة مقنعة ولا فائدة من السؤال » .

كان يشعر بخجل خفيف بعد أن يستمع الى الطفلة . ثم رفعت اصبعها مرة أخرى : « اس .. اس . لا تتكلم ! » .

اخرج سيجارة وأشعلها بأصابع مرتجفة ، وكان ينظر الى الغيمة المتدلية على النهر ، وكان يتخيلها كأشلاء انسان . كانت مقطعة داكنة في بعض اركانها ، تحيط بها زرقة شفافة وتبدو غامضة كالموت . التفت الى الفتاة وقال هامسا :

ـ « ما اسمك ؟ » .

اجابت الفتاة بصوت خافت : « يبدو انك مولع بالاسماء » .

قال الشاب : « نعم . الى حد ما . انها تجعل الانسان اليفا وترفع حواجز ثقيلة بين انسانين في اوضاع متشابهة . انها تخلق تفاهما سريا فيما بينهما . اسمي سعدي . حسن ، ما اسمك ؟ » .

ردت الفتاة : « وهل ذلك ضروري ؟ »

قال : « نعم » .

قالت : « اسمي حياة » .

تنهد الشاب بغموض وكأنه عثر على كنز ثمين ، ثم انشق فمه بابتسامة عريضة وقال : « ها يمكننا ان نتفاهم الآن . هم .. هم .. يبدو اني قد رأيتك في مكان ما ، وجهك أليف مثل وجه أخت » .

قالت حياة : « ربما . أراك من نافذة بيتنا كل يوم تقريبا . انت تمرّ علينا صباحا واراك مترنحا في آخر الليل » .

قهقه الشاب بحرج ، وقال : « حقا » .

ثم استأنفت : « ولكن ما تعمل ؟ » .

قال متضجرا : « أنا موظف في دائرة حكومية ، وعملي هو أن أؤشر على الاوراق : الى السيد عدنان رجاء ، الى السيد كامل رجاء ، وما الى ذلك . عمل رتيب ويزداد كرهي له يوما بعد يوم ، ولكن أعمل به من أجل الخبز كما تعلمين وهكذا يفرغني عملي هذا من كل حلم أشتهي » .

تساءلت حياة : « وبماذا تحلم ؟ » .

اجاب : « كنت أحلم ان اكون نحاتا . كنت انحت الخيول والكلاب والاواني في طفولتي ، وعندما كبرت اردت أن انحت أشياء أخرى ، فالانسان يفرح عندما يرى أشياء من صنع يديه . فهو يشعر بأن حياته لا تمضي بلا فائدة ، هي علامات على طريقه ، ولكن عملي قتلَ هذه العلامات وأصبحت كمؤشر ميكانيكي ينحني على الاوراق ، حتى أصبحت أشعر بالهرم والشيخوخة ، ولكن مع ذلك .. قد لا يطول الامر وأكون انسانا آخر . ولكن هل أنت طالبة أم ... ؟ » .

أجابت حياة : « كنت طالبة . تركت الدراسة لأنصرف لشؤون البيت . الاعمال البيتية مدمرة كما تعلم . اقبع في المطبخ من الصباح الى الظهر ، تملأني رائحة الطعام »

توقفت هنيهة لتسترد أنفاسها ، ثم استأنفت قائلة بلهجة اعتراف :

ـ « ماتت أمي وليس لي سوى أبي .. يعمل حارسا في محطة القطار . أقضي الليل مع أختي الصغيرة هذه . وأخي يعمل بالبناء ، يرجع متعبا عند الغروب فيتناول عشاءه ويرمي بنفسه في الفراش وينام كالميت ليستيقظ في الفجر » .

ثم صمتت وانفجرت بغتة وهي تردد :

ـ « حياة مدمرة كما ترى .. أفكر فيها .. أفكر بمستقبلي .. ماذا سيكون ؟.. متى يزول هذا الظلام ؟ لست ادري ! اردت ان ارمي بنفسي في النهر قبلَ أن تأتي ، ولكن فكرت بأختي الصغيرة فعدلت عن هذه الفكرة السوداء ، وايقنت ان موتي ليس خسارة لي وحدي وانما للآخرين ايضا . قد تكون اعماقَ النهر واسعة وافواه الاسماك التي تنهشني ارحم لي من هذه الحياة » .

تأوه الشاب وصمت وهو ينفث الدخان وقالَ :

ـ « يا لها من حياة .. يا لها من حياة » .

تحركت الغيمة قليلا واخترقت تلكَ الزرقة الشفافة . كان النهر يجري بهدوء وتدوي في أعماقه أنات خافتة كأنها صدى آهات هذين الكائنين الغائصين في زرقة الهم . مدّ الشاب يدا ثابتة نحو الفتاة ، فانسحبت بحياء وتماسكت قليلا وتطامنت . أحست بحرارة يده المنبسطة على يدها المرتعشة . وكان ثمة هدايا خضراء غامضة تنسلّ في تلكَ الحرارة المتميزة ،

تسري الى داخلها المشوش وتحلق فيه كطيور أليفة ، ثم تحطّ على أغصان روحها المتشابكة المتنافرة وتغني بجذل . خيل اليها انها تسمع تلك الاغاني السرية . كان فيها نداء عميق لا تعرف كنهه ، واستسلمت لها ، سرى فيها خدر شفاف كالطرب ، وامتطت تلك الموجة الصادحة المتموجة بعنف . ثم تطلعت الى النخل البعيد ولمحته أجرد وطويلا ومنتصبا أمام النهر وفكرت : « أنا مثل ذلك النخل » . شدت شفتيها بحركة اصرار واضحة وقالت في نفسها : « سأصمد » .

قال الشاب : « لا يعمل الانسان ما يشتهي ولكنه يتعلق بأحلامه . اف . همّ مدمر وقد ينتهي .. ربما ينتهي .. لست متأكدا . حسن . ما دمنا أحياء نستطيع أن نجعل من حياتنا جوهرة ثمينة . هل تكفي الحياة ؟ ربما ... و ... و ... » .

التقت عيناهما فجاة ، وللمرة الاولى رأى في عينيها ذلك الحزن الثابت المتأصل .. يحسّه كما يحسّ بلسعة النار . أرخى رأسه على كتفه الايمن . كانا مستغرقين في بحيرة شفافة من أحلام عصية الخيال .

وفجأة صرخت الطفلة : « هيّا .. استيقظت سيسبان » .

كان في وجهها امتعاض واضح وفيه اتهام خفي . نظر احدهما للآخر . كان في نظرتيهما مشاركة عميقة في اثم موهوم . قال الشاب : « هل استيقظت حقا ؟ » .

أجابت الطفلة : « نعم .. ايقظتماها بثرثرتكما » .

تأففت وقالت : « من ينيمها لي الآن؟ يا للمصيبة ! »

ابتسم الشاب : « هاتي . سأنيمها لك » .

تشبثت الطفلة بلعبتها وهي تصرخ : « كلا .. كلا . أنت لا تعرف كيف تنيمها . هي تخاف من الغرباء ولا يغمض جفنها معهم » .

التفت الى الفتاة ، وهزّ يده حائرا ، فأشارت له أن يتركها ، فأخذت الطفلة تربت على صدر اللعبة وتدندن بهمهمات قصيرة . تأوهت الفتاة وقالت في نفسها : « من ينيّم قلبي وأنا أغرق في بحر همي ؟ » .

قال الشاب : « ربما سأراك في وقت آخر . انظري الى النهر ، هذا النهر العظيم ، يجري مقتحما الصخور والاعشاب والحفر .. انه يجري رغم كل شيء » .

نهض من مكانه متثاقلا وأومأ بيده لها وقال : « اصغي الى درس هذا النهر العظيم .. تعلمت منه أشياء كثيرة . طابت ليلتك ، مع السلامة » .

ثم مضى يخطو متمهلا في الشارع . اخترقت الغيمة السماء وأصبحت زرقاء ورمادية . هبّ هواء خريفي رطب من ضفة النهر ، لامس وجهها فارتعشت قليلا وداخلها حزن شفاف ، فاحتضنت أختها الصغيرة بحرارة وأخذت تحدق في النهر .

وظلّ يبكي ...

قصة بقلم
عوض شعبان

.. ومضى به القطار ، يمزق صمت الليل بضجة صاخبة تحدثها قرقعة الدواليب على قضبان السكة ، وكان صفيره الحاد المتقطع يؤذي أذنيه . مدّ يده متحسسا وجهه الصارم ذا التجاعيد وتمتمت شفتاه بخوف مخنوق : « انه لا يزال يبكي » ..

لكنه عاد فوضع يديه في جيبيه وبلع ريقه وأخذ يتطلع في وجوه المسافرين الذين كانوا منهمكين في الحديث وفي قراءة بعض الصحف ، فلم يسمعه أحد منهم وهو يتمتم بصوت خفيض : « انه لا يزال يبكي » !

أدار ظهره الى جدار العربة المستطيلة التي كانت تهتز فتهزه بدورها بحيث أخذ يشعر بالدوخان . فأغمض عينيه مجددا . ان عنف صراخه المنبعث من قلبه الصغير كان يحطم أعصابه . هل من المعقول أن يكون ابنه ؟ لا ، محال . ليس من شيء يقنعه بأنه ابنه . فقد أجمع الاطباء على انه عقيم . عقيم .. ورددت معه ضجة القطار : « عقيم .. عقيم .. » . فصرّ على أسنانه بينما تلوثت ذاكرته المتداعية بصراخ الطفل وضجيج القطار . وأخذت الصور المتباينة المغبشة تزدحم على زجاج النافذة المترجرج حيث كان يحملق كالابله . ها هو يشيّع زوجه الاولى . انه لا يزال يذكر آخر كلمة فاه بها ذلك الفم الواهن : « ولد .. لو كان لنا ولد » .

وتشعبت الصورة وترجرجت مع ترجرج زجاج النافذة . وتقاذفت ملامح تلك المرأة الوفية أمام عينيه . انها صفراء .. صفراء . أكان من الممكن أن يحدث ذلك ؟ انها حشرجة الموت . هو العدم . لقد تبخر كل ذلك البهاء واستحال الى لا شيء . أهذا ما يدعونه الفناء ؟ أيضيع كل شيء هكذا ، وفي لحظة واحدة ؟!

قبّل يديها الباردتين ومرّغ وجهه بصدرها الخامد . لم تنفعه توسلات عينيه ، فقد امّحت تلك المرأة من الوجود ، ولم يبق منها سوى تلك الكومة من العظام ، وما علق بها من كتل لحم صفراء .

وعاد الصفير مختلطا بقرقعة الدواليب . وصراخ الطفل يعبث بأذنيه . وتراكمت آلاف المشاهد فيمخيلته دفعة واحدة . ودخلت صورة زوجه الثانية في صورة زوجه الاولى ، فأغمض عينيه من جديد وفرك جبينه ثم ضغط على رأسه بكفيه ، وأخذ يلهث كالكلب المسعور . انها خائنة . هذا واضح . فقد أنجبت ولدا . نعم ، أنجبت ولدا ..

وقبض على شعره ثم مرق كفه على حنكه ، وحملق في النافذة . انه عقيم . كل الاطباء أجمعوا على ذلك . كيف أنجبت ولدا اذن ؟ آه ، تلك العاهرة ! قد يكون ابن القصّاب . لست أدري . لعله ابن شفيق ، صديقي المخادع . اني أحس بذلك . لا ، القصاب .. بل شفيق . القصّاب .. شفيق . وكانت قرقعة الدواليب تردد معه : « القصاب .. شفيق .. القصاب .. شفيق .. » .

وعاد الصراخ منبعثا من بين الضجيج . وتطلع في يديه . كانتا ترتعدان . كيف يستطيع ذلك الفم ان يبكي ما دامت هاتان اليدان قد خنقتا صوته في حلقه ؟

واقشعرّ بدنه . انه ليس ابنه . ذلك ابن سفاح . من نظرات عينيه الصغيرتين .. أكانتا بريئتين ؟ ونفخ على باطن كفه ثم فرك يديه ، وشدّ جلد رقبته بيده اليسرى ، بينما مدّ يمناه الى خده تفركه بعنف . محال أن يغمض له جفن على غير منظر ذينك العينين وهما تتطلعان اليه في أسى عميق . يا الهي .. حتى ابن شهر يعرف الاسى ؟ أكانتا تتوسلان ؟

هراء . انه ابن سفاح . ولكنه ظل يبكي ! ان صراخه يتعالى . وخمدت أنفاس الطفل بعد أن حبسها بالوسادة الصغيرة . ولكنه ظل يبكي .. انه يبكي !

أمسك رأسه بكفي يديه ، وشدّ شعره ، وكاد ينفجر . ان ذلك الطفل لن يكفّ عن البكاء . لقد دفنه بيديه هاتين . نفس اليدين اللتين قبضتا على الوسادة بشدة .

وعاد يلهث باعياء . نعم . لقد دفنته وأهلت على رأسه الصغير حبات التراب الاسمر . ومع كل هذا كنت أسمع صراخه .

وأحسّ بضيق شديد في صدره . انه يختنق . ففتح زجاج النافذة ، وهبّت نسمات الشتاء الباردة تلفح وجهه الكالح . واشرأبّ بصره من بين العتمة ليقع على قبر صغير في ذلك القفر ، فانتفض رهبة ، وارتعدت أوصاله ، فأغلق الشباك بقوة وأدار ظهره وهو يسد أذنيه باصبعي يديه المرتجفتين . انه لا يريد سماع ذلك الصوت المنبعث من ذلك القبر الصغير ..

وركض في عربة القطار المستطيلة . وصبّ بصره على طفل رضيع في حضن احدى المسافرات . فأمسك بالمقعد وجلا وصرخ في وجهها ، مشيرا الى الطفل : « مات .. مات .. لكنه ظل يبكي » !

بيروت

قناديل لمندلي المقتولة

تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٤ ـ

وشعر برعشة برد فلفّ صدر المعطف حول رقبته واسرع في مشيه . ولاحت شجرات الرمان في آخر البلدة ورأى تحتها شبحين . وعندما اقترب تبين اسعد واحمد . واحسّ برعشة في فقرات ظهره من الخوف . كان يحس ان المغامرة رهيبة وان الليل جاسوس يتنصت وسيطارد . وشعر انه يود لو استطاع الرجوع الى البيت لينام قرب ابيه الشيخ الذي لا يستطيع أن ينهض الا اذا توكأ على كتفه . وهتف اسعد :

ـ هكذا يا ابراهيم ، هكذا يكون التصميم والعزم . بعد ساعة واحدة سيعود النهر يجري في هذه الارض العطشى .

وهنا لاح شبح يتقدم نحوهم في الظلام ، وسرعان ما تبينوا فيه غسان ، وكان يحمل بندقيته . وقال انه اخرجها من غرفة أبيه سرا في الساعة الثامنة واخفاها قرب باب الدار .

لم يبق الا مرتضى ، وسرعان ما اقبل مسرعا يسير في حيوية ونشاط . وهتف ابراهيم :

ـ الآن اكتمل عددنا ، فلنبدأ السير . وسنفتح باب السد بسرعة ونعود قبل الواحدة ، ويكون الماء قد اندفع في وادي السيبة يروي مدينتنا العطشى .

وسار الفتيان الخمسة الى جانب اشجار الرمان حذر أن يراهم الحرس الايراني . وعندما بلغوا الحدود وجدوا أسلاكا شائكة ممدودة تمنع العبور ، وهمس أسعد :

ـ انعطفوا الى اليمين . هناك كسر في الاسلاك نستطيع العبور منه .

كان الليل نصف مظلم لوجود ضوء القمر . وكان السياج كثيفا امامهم على الارض . ولاحظوا انهم يستطيعون المرور زحفا على البطون . فانبطحوا على الارض وعبروا جميعهم دون أن يحدثوا جلبة . وعندما صاروا في الجهة الثانية من الاسلاك ، نهضوا واقفين وانصتوا جيدا ، فتأكدوا ان الحرس لم يسمعوهم . وساروا في هدوء وحذر ، وعلى بعد خمسين خطوة راوا نهر السيبة الجاري . كان هناك مجريان للنهر ، أحدهما قد جفّ وهو الذي يسقي مندلي . والثاني هو السيبة المدلل ، نهر ايران . وفي نهاية الوادي الجاف باب من حديد مغلق يمنع الماء عن مندلي ويرسله كله الى الارض الايرانية . واقتربوا من المكان ووقفوا .

كان الاحساس الاول لديهم هو السرور بالوصول الى مكان الجريمة . وماذا يريدون بعد ؟ ها هو الحاجز وفي وسعهم أن يفتحوه بأيديهم فيجري الماء في نهر السيبة . وقال أحمد :

ـ يا اخوان . ما فائدة فتح الماء على وادي مندلي ؟ ان حرس الحدود سينتبهون في الصباح ويعيدون قطع الماء عنا .

وهتف مرتضى :

ـ كل ما يهمنا ان نشعر حكومة ايران باننا لسنا اذلاء ولا جبناء بحيث نسكت على تحويل النهر ونرحل عن مندلي بلا احتجاج . أريد أن يحسّوا بأننا غاضبون واننا فعلنا شيئا .

وبدأ ابراهيم يخلع ملابسه وبقي بالسروال فقط وقال :

ـ علينا ألا نطيل الحديث ولنبدأ بالعمل . سأنزل في هذا الحوض وأحاول أن أفك السلسلة التي تفتح هذا الباب الحديد .

قال هذا وقفز في الماء البارد الخريفيّ . وهم يعلمون كلهم ان ابراهيم أمهر سباح في مندلي ، فقد تعلم السباحة ومارسها منذ طفولته . وهتف مرتضى :

ـ ابراهيم . السلسلة على يسارك ، اسحبها لينفتح الباب .

ولاح لهم ان القدر كان معهم ، فان ابراهيم سحب السلسلة ، فانفتح الباب الكبير ، واندفع الماء الى وادي مندلي . وظهر لهم فيما بعد ان الحراس لم يقفلوا السلسلة بعد ، دون أن يخطر لهم ان فتيان مندلي سيجازفون بحياتهم ويفتحون الباب . ماذا بقي ؟ ولماذا تأخر ابراهيم تحت الماء ؟

كانت قدما ابراهيم بارزتين فوق الماء وراسه وكتفاه تحت السطح . ووقف الرفقاء الاربعة ينتظرون . ولم يرفع ابراهيم رأسه ، وبقيت قدماه فوق سطح الماء . وقال مرتضى بصوت قلق :

ـ لماذا لا يصعد ؟ ان الماء قد تدفق في نهرنا . ابراهيم ! ابراهيم ! اصعد الينا ، بارك الله فيك !

ولم يرد ابراهيم ، وبقي رأسه تحت الماء . اخيرا قفز مرتضى الى الحوض وراح يسحب ابراهيم ، فاذا رأسه لا ينسحب . وعاود مرتضى جرّه بلا جدوى . والتفّ حوله ومد يده ليرى سبب بقائه تحت الماء فاذا شعره قد ارتبط بالسلسلة ارتباطا يصعب فكه . وصرخ مرتضى :

ـ لقد غرق ابراهيم . يا الهي . غرق ومات .

أخذ الاولاد يبكون بكاء صامتا وهتف اسعد :

ـ يا ويلاه ، يا ويلاه . ماذا سنقول لابيه الشيخ العجوز الذي ليس له سواه ؟

وخلال ذلك كان مرتضى مستمرا في محاولة فك الارتباط بين شعر الفريق والسلسلة ، ونجح أخيرا فرفع رأس ابراهيم على راحة كفه فوق الماء ودفعه صوب الشاطىء . وامتدت أيدي الشبان الثلاثة ورفعوه

الى الجرف وجسمه النحيل يقطر ماء . ووضعوه على الضفة ، وكان وجهه مطمئنا لا خوف فيه . ولاح كأنه قد صادق الموت ووجد السعادة لديه . وصعد مرتضى الى الضفة وهمس وهو يبكي :

ـ يا اخوان ، يا اخوان ، كيف سنخبر اباه الذي يعبده ؟

وقال أحمد :

ـ له ثلاثة اخوة واخت واحدة ، ولكن الشيخ يحب ابراهيم اشد الحب .

واستمروا يبكون ويتأوهون ، وصاح بهم مرتضى :

ـ تحركوا فورا ، ان الموقفعصيب . تعالوا لنحمل الجثة بيننا ونحاول ان نعبر بها الاسلاك الشائكة .

وانحنوا وهميتعذبون، وحملوا بينهم جثة ابراهيم. وكان الغريق وديعا في موته كما كان وديعا في حياته . كان خفيف الحمل وعلى ثغره ابتسامة غريبة ، ابتسامة فرح وكأنه عانق في الموت صديقا حبيبا .

وعبروا الاسلاك الشائكة في المكان المكسور ، وتنفسوا الصعداء عندما صاروا في أرض عراقية وقد نجوا من حرس الحدود . وكان السيبة الى يسارهم واديا تندفع فيه مياه غزيرة . وهتف مرتضى :

ـ رحمة الله عليك يا حبيبنا ابراهيم . لقد رجعت محمولا على الايدي . لكنك لم تمت الا بعد أن أجريت الماء في أرضك اليابسة .

وزاد بكاء الفتيان بعد أن نجوا من الحدود . لقد عادوا بالماء ولكنهم رجعوا يحملون جثة . وستشرب مندلي من يد الشهيد الحبيب الذي وهب حياتهلمدينته. ولكن الاولاد عذبوا أنفسهم بفكرة واحدة . لقد ضحى ابراهيم بنفسه من أجل ليلة واحدة يندفع فيها الماء الى وادي السيبة. مرة واحدة ترتوي مندلي ثم يغلقالحرس الايراني الباب الحديد وينقطع الماء على عروس المدن مندلي الحلوة .

ماذا بقي ؟ المشهد الدراماتيكي ، مشهد اللقاء بين ابراهيم وأبيه الشيخ وهو مشهد يعكس الازل ، أزل في عيني الاب الواله المفجوع ، وأزل على بؤبؤ الفتى الميت .

ويقف الازل وينظر ، ويبقى الاستشهاد والتضحية والفداء ، وتبقى مندلي يابسة حتى يأتي مستقبل غير بعيد ويعيد اليها الماء والحياة والخضرة . وينتصر ابراهيم ، ينتصر ابراهيم أبدا . اجرى الماء في مندلي ورواها ومات . وهل مات حقا ؟ لا لم يمت ابراهيم ولا ماتت مندلي . ان الحياة تحب ابراهيم لانه أحيا مندلي واعطاها الماء والنماء والبركات .

وساروا في ظلام الليل يحملون أول شهيد على ارض النضال . النضال ضد نوري السعيد . النضال ضد حاكم ايران الذي لا احساس له ، النضال من أجل الحياة .



معلمة القرية

بقلم زوان ساخ
ترجمة كاتيا سرور

تلقيت رسالة من ابن أخي كوانغ يقول فيها :

« هذه السنة اكون في الصف الثالث .

ما عدنا نعمل مع السيد لونغ ، بل مع الآنسة هوان التي وصلت مؤخرا .

الآنسة هوان هي الرقة بذاتها . غير انها ما عادت تملك سوى ساق واحدة وهي تأتي الى الصف على عكازات .

دوما انا ودانغ نتشاجر بشأنها . فبالنسبة لي هي مشوهة حرب ، بالنسبة له لا . قلت لوانغ انك مشوه حرب بجرح في البطن ، فكيف اذن بالآنسة هوان مع ساقها المبتورة الى ما فوق الركبة ؟ غير ان دانغ حاججني بأنه لا يمكن أن يسمى مشوه حرب الا من كان مقاتلا .

لم أطلب بعد من الآنسة هوان أن تبتّ في هذه النقطة . لكن والدي قال لي : « ان تونتون في الجيش ولا بد انه يعرف ماذا يعني مشوه حرب » . من أجل هذا أكتب لك . أجبني كي تقول لي ان دانغ مخطىء .

ابن اخيك » .

لم أعرف كيف أجيب كوانغ . ذلك اني ما عرفت شيئا حتى الآن عن معلمته . لقد فكرت دائما ان الكلام مع الاطفال يستدعي من الاشخاص الكبار ، الذين يوليهم الاطفال ثقتهم ، الكثير من الحذر . بالاضافة الى ان كوانغ كان بحاجة لان يكون متثبتا ، ليس كي ينتصر على زميل ، بل كي يحدد مشاعره تجاه معلمته . لهذا ، كتبت له انني سآخذ « مأذونية » ، وانه ستتاح لي فرصة أن أحادثه بالتفصيل . ومن حينها ، غالبا ما راود فكري طيف صبية آتية الى الصف على عكازات . لم اتوصل الى تخيل ملامحها ، ولا مشيتها ، ولكن بالنسبة لي ما كان بامكانها الا أن تكون شخصا رائعا . كنت واثقا من ذلك .

* * *

حصلت على مأذونيتي في أيلول . نزلت من القطار في التاسعة صباحا ، وكان عليّ أن اقطع مسافة كيلومترات ستة من المحطة الى منزلي . كان الطقس ناعما وجافا . وكانت شتلات الارز تتماوج تحت النسيم في الحقول المحروثة حديثا . ولأني معتاد على تحمل قساوة البرد في حقل التدريب ، فما كان بوسع هذا الجو السمح الا أن يغمرني بالراحة . لم أجد في البيت سوى أمي . كان اخي وزوجته في الحقول . كوانغ أيضا لم يكن قد عاد . ورحنا ، أمي وأنا ، نتحدث . لم يفتها أن تذكرني بأني بقيت دوما عازبا .

ــ كم يوما من المأذونية حصلت هذه المرة ؟.. قريبا سيحل عيد مولدك . وستكبر سنة زيادة ، أنا في كل يوم أغدو عجوزا أكثر . لا أعرف متى سأرحل . لماذا لا تسعى لان تتزوج كي أرتاح ؟ ألا يعجبك العجب في الزمن الذي يركض ؟

أجبتها ضاحكا :

ــ انك تقلقين بشأني كثيرا يا أمي . الا ترين ان بوسعي الانتظار أيضا بضع سنوات ؟

ثم انصرفت كي آخذ كوانغ لدى انصرافه من المدرسة . وكانت هذه تقع في الدار العامة . وقد شغل كل صف واحدة من قناطر المبنى الكبير الثلاث . وكان صف كوانغ على يسار الداخل . من الخارج ، وعبر السياج ، استطعت رؤية السبورة السوداء والمعلمة على مرتبتها . وكان ما زال يفصلني عن الانصراف نصف ساعة ، فرحت من آن لآخر القي نظرة عابرة الى الصف، تاركا خلفي حقول الارز المزروعة حديثا تمتد سجادة خضراء عظيمة حتى أقدام السد .

من المكان حيث كنت ، سمعت وقعا خفيفا أصم . هي بلا ريب ضجة عكازات المعلمة علىالارضية الخشبية. وعبر السياج استطعت أن أراها من رأسها حتىمنتصف الجسد . كان شعرها الاسود الفاحم يذوب في أزرق الثوب العمالي . وقد تابعت حركة يدها التي تكتب على السبورة ، وفي لحظة معينة ، استدارت صوب تلامذتها.

رأيت وجهها المشع. وعينيها اللوزيتين اللامعتين تسودان الصف . وها هي فجأة تلقي نظرة الى الخارج ، باتجاهي تماما . أحسست ، وأنا خلف السياج الذي يخفيني ، كما لو انها تتأملني . تراجعت عدة خطوات كي أسحب نفسي من نظرتها . مع ذلك تسنى لي الوقت كي أسمع بعضا من كلماتها . ليس بوضوح ولكني فهمت انها تحكي عن ديان ـ بيان ـ فو .

بعد أن قمت بدورة في غرفة مياه المدرسة ، عدت عند قرع جرس الانصراف . وما ان أبصرني كوانغ حتى صرخ : « تونتون فينه » ! أتى يحيط ساقي رافعا صوبي وجها مضيئا . داعبت رأسه وأخذت من يديه كتبه ودفاتره . حياني الآخرون بتودد . قال أحدهم :

ـ تونتون . لقد اخذنا درسا عن ديان ـ بيان ـ فو . هل شاركت في حملة ديان ـ بيان ـ فو ؟

ولما هززت رأسي موافقا ، استرسل :

ـ في يوم من هذه الايام ، ستحكي لنا هذه المعركة، أليس كذلك ؟

في هذه اللحظة ، خرجت المعلمة من المدرسة .

وأنا ارفع رأسي ، التقيت بنظرتها . ردت تحيتي باتسمة وعلى سجيتها تماما .

قال كوانغ :

ـ آنسة ، انه تونتون فينه وهو مجاز .

سألتني : ـ هل وصلت حديثا ؟

ـ نعم في قطار هذا الصباح .

كما العصافير تغادر شباكها تبعثر الاطفال . لم يبق الآن سوى المعلمة ، وكوانغ وانا . عهدت المعلمة الى احد التلامذة في كتبها وأمتعتها . وبيديها اللتين ما تزالان مبقعتين بالطباشير ، راحت ترتكز على عكازيها وهي تسير . كانت فتية الوجه والمشية ، والى جانب ذلك لمحة صغيرة جادة . وكان لها عينان فرحتان بشكل غريب ، مختلفتان تماما عن عيون المشوهين الذين عرفت حتى الآن . عند الساق المقطوعة كان ينثني سروالها الاسود .

وآلمني ان ارى لها فخذا مبتورا .

سألت الصبية :

ـ من اين أنت في الاصل يا آنسة ؟

ـ أصلي من « ديسترتيت » . بعد ان انتهت مدتي كمتمرنة عينت هنا .

ـ لا بد انك كنت تفضلين مسقط رأسك .

ـ لا أبدا ، لقد طلبت تعييني هنا ، ربما أنت لا تعرف ، لكني كنت قد عملت هنا أثناء المقاومة .

ـ أأنت من فترة طويلة في التعليم ؟

ـ منذ ثماني سنوات ، لكن مع توقف لمدة سنوات ثلاث .

وعند أحد تشعبات الدرب ، تركتني هوان .

ـ رفيق . قالت وهي تضغط يدي ، مرّ صوبي في أحد الايام . انني أقطن عند مدام نينه . وكوانغ سيدلك .

عدت مع كوانغ ، وبقيت أهجس بذكرى وقع العكازات ضاربة أرضية الخشب . وسألني كوانغ الذي كان عليه أن يتذكر رسالته :

ـ أخبرني اذن . هل الآنسة هوان مشوهة حرب ؟ لقد أخبرتنا في ذلك اليوم ان طائرة للمستعمرين أطلقت عليها وبترت لها ساقا .

لكني قلت لكوانغ : اني سأسأل المعلمة لاتأكد .

* * *

قررت أن أذهب لرؤيتها نهار الاحد التالي . غير انها في اليوم الثاني أتت الينا . قمت من نومي على صوت عكازاتها تضرب أرض الفناء المرصوفة بالحجارة . حين رأت اني لم أفق تماما ، اتجهت الى المطبخ لتجد أمي . وكان بوسعي أن أسمع صوتيهما من غرفتي .

ـ ماذا تطبخين هنا ، سيدتي ؟

ـ علف للخنازير يا معلمتي الصغيرة .

ـ لقد سمنت خنازيركم ، فلماذا لم تبيعيها بعد ؟

ـ لكني لا أنوي بيعها .. انا أعلفها من اجل .. من أجل ما تعرفين .

في هذه اللحظة ، انضممت اليهما في المطبخ ، فرمتني هوان بنظرة شقاوة :

ـ ان السيدة والدتك تعلف الخنازير كي تحيي عرسك .

انزعجت الى الحد الاقصى :

ـ في الوقت الحاضر ، ما عادت مآدب الزواج تقام .

آنذاك اتخذت أمي من هوان شاهدا :

ـ أترين يا آنسة . في عمره والوعد ليس دوما ملك يمينه . ان خنازيري لن تستعيد الشباب . وولدي كذلك .

راحت هوان ، وهي على عكازاتها ، تضحك من الاعماق . وفيما دعوتها لتناول الشاي كانت أمي تتابع كلامها :

ـ أنت أيضا آنسة هوان . متى ستزفين لنا البشرى ؟

غشى عيني الفتاة ظل . وتبعتني دون أن تنبس بكلمة .

كانت هوان قد أتت لتطلب مني القيام بحوار مع تلامذتها عن مقاتلينا وخاصة عن حملة ديان ـ بيان ـ فو . وهذا ما قبلته بسرور . وبعد أن حددنا موعدا للحوار ، تركتني . ومجددا رحت أسمع وقع عكازاتها وهي تطرق أرض الفناء .

قيمت الندوة جيدا ، وشكرتني هوان لقيامي بها ، وجددت دعوتي لزيارتها .

* * *

نهار الاحد التالي ، ذهبت عند مدام نينه حيث تقطن هوان . فوجدتها منشغلة في العناية بخضارها . وقد اقبلت نحوي وهي ترتدي قميصا قصير الاكمام . آلمني ان ارى ذراعين مستديرتين ومشدودتين . ولكن احدى ساقي السروال كانت تطوّح ملطخة بالتراب . سألتها :

ــ أتقومين بالبستنة أيضا ؟

ــ أجل ان عمل البستنة يعجبني . قالتببساطة .

ثم ذهبت قرب جرة ماء كي نغتسل . ساعدتها في صبّ الماء ، وكي تغسل القدم التي تبقت لها ؛ كان عليها ان تستند على الجرة . ورحت افكر بالساق التي فقدتها .

كان حديث هوان شديد الجاذبية . لم تكن لتقوم بحركات أثناء الحديث . كانت عيناها فقط تغدوان أكثر بريقا أو أكثر رقة تبعا لكلامها . وترمق محاورها بطبيعية وود في الآن معا . وأحبت هوان ان تحكي عن مهنة التعليم ، عن ميزات الاطفال ، وساءلتني عنتجربتي التربوية ، ولما كنت لا اعرف شيئا ، فقد رحت أروي لها حكايات عن المقاومة وعن المعركة . وذات يوم ، وانا احكي لها عن الدروس الليلية التي تسنى لي الاطلاع عليها أثناء حملاتنا العسكرية ، اخرجت من خزانة لها مصباحا صغيرا مصنوعا من ظرف خرطوشة فارغة عيار ٢٠ ملم .

ــ هاك مصباحا صنعه تلامذتي أثناء المقاومة . احتفظ به كذكرى .

اغتنمت الفرصة لأسألها :

ــ متى اذن اصبت ؟

ــ عام ١٩٥٣ .

ــ طائرة ؟

ــ أجل ، كانت تقصف قرية « ترونغ » ، حيث كنت أعلّم .

تذكرت ، اني تلقيت يومها رسالة من العائلة ، تعلمني ان قرية « ترونغ » المجاورة لقريتنا ، قد هوجمت . اذن ، هناك أصيبت هوان .. ولكن بأية ظروف ؟ ولدى سؤالي ، رأيت شبه تساؤل أخرس في عينيها ، ترددت في اجابتي وهي منفعلة دون ان أعرف لماذا ، فشجعتها بحركة من رأسي .

واسترسلت هوان تروي لي قصتها . قالت بلهجة رتيبة وبوضوح كامل :

ــ كان أبي في سلك التعليم . وبعد ثورة آب ، دخل في خدمة الرابطة الادارية والمقاومة في « ديستريكت » . في العام ١٩٥٢ ، انتقلت خدمات « ديستريكت » الى هنا . فلحقت بوالدي وبدات العمل في مكتب . كنت آنذاك في الثامنة عشرة من عمري . وما كان مسليا في هذا العمر أن يغلق على المرء طيلة النهار في مكتب . وهكذا ، طلبت عملا آخر ، وحصلت على موافقة أبي ، فعينوني معلمة في قرية « ترونغ » . كنت أدرّس في النهار الاطفال والكبار في الليل . في أحد الايام ، جاء طفل صغير يطلب تسجيله ، كان بحدود العاشرة ، ضئيل القامة لكن بصحة جيدة . كان يرتدي سروالا قصيرا وكانت سترته مرقعة في مكانين أو ثلاثة . لكنها كانت نظيفة . شعره الطويل يكاد يغطي اذنيه . له فم كبير وعينان لماعتان ونفاذتان . كان يحمل ريشة من القصب الاستوائي ، وطرف قلم معلق في وعاء من نبتة الجونك (*) ، ومحبرة صغيرة ودفترا .

كان الصف قد أبتدأ حين وصل . كل التلامذة راحوا يتأملون الوافد الجديد . بعد تردد قصير قال لي بلهجة حاسمة :

ــ آنسة انا اصلي من ... لم تأت أمي لانها مشغولة ، أرسلتني كي أسألك قبولي في صفك . وستأتي مرة أخرى .

ولدى سؤالي ، اجابني الطفل بقليل من الخجل ، انه الآن فقط يبدأ الدراسة :

ــ لم أنه بعد الحروف الهجائية .

ــ وما هو اسمك ؟

ــ فينه .. اسمي ، نيغوين فان فينه .

حين قلت له انني قبلته في صفي ، لمعت عينا فينه بالفرح .

اجلسته في الصفوف الامامية . كان ذكيا جدا ومجتهدا جدا . فقد أتى بعد الآخرين بشهر واستطاع خلال شهرين فقط ان يلحق بهم . لم يكن عنده ثياب ليبدل . في بعض الايام كان يلبس ثيابا لم تجفّ تماما .

كنت مرة ذاهبة اليه ، فوجدته متسلقا فوقكرسي ينزع لحاء الشجر ، وكانت أمه بقربه تغربل الحبوب . ولدى وصولي توقف واتجه صوبي :

ــ انها الآنسة هوان، معلمتنا، (قدمني لوالدته) .

سارعت الام ، وهي خجلى بلا شك من فقر بيتها ، فوضعت الحصيرة فوق السرير القصبي قبل أن تدعوني للجلوس . وحين أخبرتها ان ولدها عاقل ومجتهد ، كان فرحها جليا .

ــ آنسة (قالت لي باستعطاف) اني اولي كل ثقتي لك ، لرعايتك ، انه يتيم . وعيشنا صعب ومتأرجح . لكني أبذل جهدي كي أرسله الى المدرسة . آمل أن يغدو سعيدا في النهاية .

بعد زيارتي لعائلته ، ازداد ارتباطي بالصغير فينه.

(*) نبتة تنمو في الاراضي الرطبة ، ذات أوراق اسطوانية .

عند وصولها الى هذه النقطة من قصتها . توقفت هوان لتسكب لي الشاي . بدت ملامحها أكثر رقة مع تداعي الذكريات القديمة . ثم تابعت :

ــ في ذاك الوقت . كانت الكتب نادرة جدا ، ولكني استطعت أن أحصل على كتاب من أجل فينه . فاعتنى به عناية فائقة . ما تردد في أن يحدج زملاءه الذين يتركون كتبهم بحالة سيئة . اراد أن يعتني الجميع بكتبهم مثله . تحت المطر ، كان يقبل أن يتبلل . لكنه كان يرتب أموره دوما كي يحفظ كتبه من البلل . أردت مرة أن أعطي فينه سترة عتيقة . فكان عليّ أن أحملها له الى البيت . وكان عليّ أن الح كثيرا كي يقبلها . صحيح ان شعبنا فقير ، لكن هذا لا يعني ان شعبنا مستعد أن يقبل أي شيء من أي كان .

ثم كان اليوم الذي لا ينسى ، كان ذلك في بداية العام ١٩٥٣ . في الوقت الذي انهينا فيه حملة الشمال الغربي . وكان المطر ينهمر سيولا . كنا ما نزال في الصف عندما سمعنا صوت الطائرات . صيادون أعداء كانوا يحلقون فوق رؤوسنا (علمنا في ما بعد انهم كانوا يطاردون شاحنتين تنقلان أرزا للحكومة) . جننت . والصفار أيضا . وحين كانت الطائرات تتجه من جهة الساقية . ادخلت الاطفال الى الخندق . وفيما كنت الحق بهم ألقيت نظرة أخيرة على قاعة الصف . وكم كانت دهشتي وأنا أرى فينه مشغولا بعمل ما لا أعرف تماما . متى خرج من الخندق ؟ صرخت له أن يعدو سريعا الى الملجأ .

تأبط فينه تحت ذراعه كومة من الكتب . كانت عيناه متجهتين صوب السماء ، وراح سريعا باتجاه الحديقة . وفجأة سمعنا أزيز الطائرات . أخذ الخوف فينه ، فأخذ يركض لكنه لم ينجح في أن يقطع الملعب المكشوف ، تضايقه في ركضه كومة الكتب التي خاف أن يتركها تقع . أخذني الجزع ، كان فينه يخاف أن يصاب ، لكن ما العمل ؟ وبدون تفكير ، قفزت خارج الملجأ . كي أجبره أن ينبطح على الارض .

توقفت هوان . ضائعة في ذكرياتها .. ثم تابعت بعد أن رمقتني بنظرة سريعة :

ــ كنت قد سمعت انكم ، أنتم المقاتلون في الجبهة، كنتم تسعون لحماية الكوادر من رصاص العدو بتغطيتهم بأجسادكم . وقد عملت مثلكم مع الصفير فينه . سمعت انفجارا عنيفا ثم احسست بالبرودة تسري في كل جسدي . خلت اني سأموت .

طأطأت هوان رأسها وهي تسمعني أطلق تنهدة عميقة ووضعت على الطاولة يدا مرتجفة ثم عادت تقول :

ــ أرسلوني الى مستشفى الضاحية . كانت ساقي مكسورة ويجب بترها . قلت لنفسي : « لقد انتهت حياتك كشابة . كما لو انك مت » . ومع ذلك فقد استمررت أعيش . كان مستشفى الضاحية في ذلك الوقت في « نويا » . غير ان فينه وأمه أصرا على المجيء لرؤيتي . وقد أثرت زيارتهما فيّ عميقا . حملت لي السيدة فينه دزينة بيض . وانفجرت بالنحيب لدى رؤيتي . وأما أنا فقد أحسست بعزاء كبير وانا أرى فينه سليما معافى . وشكرتني السيدة فينه وهي تقول انه بانقاذي ولدها الوحيد قد أنقذتها هي . لانه ما كان بامكانها الاستمرار في العيش بعد موت ولدها . كان لطيفا أن أفكر ان ساقي لم تضع هباء . وفينه يلوم نفسه كثيرا لانه تأخر ذاك النهار في الذهاب الى الملجأ . اراد أن يجمع كتب الصف . كان يخاف أن يتلفها القصف .. كيف ترى طريقته في رؤية الامور ؟ على كل حال .. هاك كيف أصبت .

بعد ان شربت الشاي . وضعت كأسي على الطاولة ونظرت الى هوان جيدا في الوجه .. كما كي أبحث لاجد خلف وجهها الرقيق وعينيها الضاحكتين ما الذي أمكنه أن يدفعها لفعل ما فعلت . لا أعرف ان كانت قد أدركت أفكاري . لكنها تجنبت نظري دوما .

ــ وبعد ؟ سألتها .

ــ بعد ذلك عدت الى منزلي . وبقيت مده سنتين أو ثلاث حزينة حتى الموت . ثم حين ما عاد بوسعي البقاء هنا وأنا اندب حظي ، طلبت أن أستعيد مهنتي كمعلمة . أيد الرفاق فورا فكرتي مهنئين اياي على الحل الذي وجدته . وشيئا فشيئا اختفى اليأس والحزن من نفسي . أخيرا في هذه السنة طلبت تعييني هنا . وقد سرّت مدام فينه كثيرا وألحّت كي آتي وأقطن عندها . لقد استطاعت الحصول على هذا البيت بعد الاصلاح الزراعي . ولكن ها اني اخبرك كل شيء كما لو انك لا تعرفه سلفا انت ابن القرية .

جاء ضحك هوان كي يخفف الجو الضاغط الذي ولدته قصتها . وأبلغتني هوان أخيرا ان فينه يتابع الآن الصف العاشر . انه من افضل تلامذتها .

بعد هذا الحديث ، غدت العلاقات اكثر صداقة بيني وبين هوان . كنا نتقابل تقريبا كل يوم ، سواء عندها أو عندي .

في عصر أحد الايام ، وجدت هوان تغسل شعرها، وهي جالسة على كرسي صغير من الخشب . كانت العكازات موضوعة على حدة . وكانت يداها منهمكتين في تفويج شعرها الغاطس في حوض المياه الصغير . يبدو انها لم تكن تشعر بالتوازن لانها كانت ترتجف قليلا. وقد اعتذرت مني ودعتني للدخول الى المنزل . ولكني عدت فخرجت سريعا حاملا مقعدا وقلت لهوان أن تجلس عليه واضعا حوض الماء قربها . ما كان على هوان أن تفهم مبادرتي بمقاييس أخرى ، لكنها كي تمنحني

السرور لم تقل شيئا ورنت الي بنظرة لا يمكنني وصفها بأكثر من انها راحت الى القلب مباشرة .

بعد ذلك استعدنا حديثنا الحميم . واغتنمت الفرصة كي اسألها عن « شؤون القلب » لديها . لم تتظاهر بالانزعاج كما العديد من الفتيات الاخريات . قالت لي وقد اظلم وجهها :

ـ ليس لدي ما هو مهم كي أخبرك به .. لقد مضى زمن طويل . كنت ما أزال في خدمات « ديستريكت » .. عرفت شابا ... ولكن حدث أن أحب . ومن حينها .. توقفت الاشياء فيما بيننا هنا . هاك شأن القلب الوحيد . على كل لقد توصلت أن لا أفكر بهذا أبدا .

كانت مأذونيتي على وشك الانتهاء . وحضّرت نفسي لألتحق بوحدتي . وبقي علي ان أجيب على سؤال ابن أخي كوانغ . هل الآنسة هوان مشوهة حرب ؟

كيف سأتدبر أمري ؟

لقد تركت هذه الشابة اثرا كبيرا في نفسي . ضجة عكازاتها فوق البلاط ، ساق سروالها يطوح معفرا بالتراب . صندوق الخشب الذي تسند عليه ساقها... كل هذا استثار ابتئاسي اكثر مما استثار غضبي . لقد رأيت في ميدان المعركة العديد من الرفاق المصابين . أنا نفسي أصبت . لكن ، هذه الشابة ... أن تكون هي التي أصيبت ، فان هذا يبدو لي سادية بربرية .

بالمعنى الحرفي للنص ، أي مع التطبيق الشكلي للقوانين السائدة ، فان هوان لا يمكن أن تعتبر كمشوهة حرب ، كونها لم تقاتل العدو مباشرة . لكن ليس بامكاني أن أعطي جواب كهذا لكوانغ . في النهاية .. هاكم كيف تصرفت . لقد سألت كلا من دانغ وكوانغ :

ـ أتعرفان ان المعلمين هم أيضا مقاتلون ؟ مقاتلون على جبهة الثقافة .

صرخ كوانغ ممتلئا بالفرح : « أرأيت ، دانغ . لقد خسرت . لقد كانت الآنسة هوان مقاتلة ، وأصيبت . اذن هي مشوهة حرب » .

فكرت ان كوانغ ليس مخطئا .

* * *

صبيحة رحيلي ، رافقتني هوان جزءا من الطريق. كنا قد غدونا صديقين حميمين . انه لطبيعي أن يودع الاصدقاء بعضهم ، أليس كذلك ؟ لكن حين شددت يدي هوان قبل أن أتركها ، اعتصرني انفعال عميق . لقد أصبحت هوان لي شخصا عزيزا جدا ، لن أتوصل الى قبول حياتي من دونها . نظرت الي بكل عينيها . عيناها قالتا لي تعلقها ، قالتا لي انها ستفتقدني ، لكن مباشرة بعد ذلك انتقلت عيناها الى العكازات والى الساق المبتورة . تلك كانت المرة الاولى التي تنظر فيها بهذا الشكل منذ أن عرفتها . أبقت عينيها مخفضتين برهة طويلة في حين تعقد صوتي في حلقي . ولأني فهمت بماذا تفكر هوان ، أردت أن أقول لها شيئا ، لكني فكرت ان هذا ليس ضروريا . لقد افترقنا في يوم مشمس .

بعد أكثر من شهر ، تلقيت رسالة من ابن أخي . أعلمني كوانغ ان معلمته تستمر في المجيء الينا ، وان أمي كلفته بأن يذكرني بالكتابة للآنسة هوان . فجأة خلت اني فهمت مغزى هذا الطلب من والدتي . ارتفع الدم الى رأسي . قلت لنفسي : « أالى هذا الحد أمي متعلقة بهوان ؟ كيف يمكن لشابة كهوان أن لا تكون محبوبة من الجميع ؟ أجل يا أمي ، أنا وهوان قد تكاتبنا حتى الآن مرتين . والآن كي أطيع أمرك ، سأذهب وأرسل لها رسالة ثالثة ... » (*) .

(*) من مجموعة « ساعاتي ديان بيان فو » ـ دار النشر باللغات الاجنبية ـ هانوي ١٩٧١ .



الفهرس العام لسنة «الآداب» السادسة والعشرين ١٩٧٨

راجع بريد « الآداب » تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة « شعر » . والقصص تحت مادة « قصة » . والنتاج الجديد تحت مادة « كتاب » . والمناقشات تحت مادة « مناقشة » . والنشاط الثقافي تحت مادة « نشاط » .

١ — فهرست الموضوعات

٢ ـ فهرست الكتاب